

الصَّحَابَةُ

عناصر الموضوع

٢٦٤	مفهوم الصحابة
٢٦٦	مكانة الصحابة
٢٧٥	صحابية لهم مكانة خاصة
٢٨٣	نماذج قرآنية لمواقف الصحابة
٣٠٧	منزلة أهل البيت رضي الله عنهم
٣١٨	واجب المؤمنين تجاه الصحابة الكرام

مفهوم الصحابة

أولاً: المعنى اللغوي:

الصحابي مشتق من الصحبة، والصحابة مصدر قولك: صاحبك الله وأحسن صحابتك. ومادة (صحب) تأتي لمعان، منها:

- الملازمة: كل شيء لازم شيئاً فقد استصحبه^(١). وكذا كل شيء لاءم شيئاً^(٢).
- المعاشرة قال ابن منظور: «صحبته يصحبه صحبة بالضم وصحابة بالفتح، وصاحبه: عاشره، والصحب: جمع الصاحب مثل راكب وركب، والأصحاب: جماعة الصحب، مثل فرخ وأفراخ، والصاحب: المعاشر»^(٣).
- الانقياد: «أصحبت أي: انقدت له»^(٤).

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

يعرف المحدثون الصحابي بأنه: «من لقي النبي مؤمناً به، ومات على الإسلام، ولو تخللت ردة، في الأصح»^(٥).

قال ابن كثير: «هذا قول جمهور العلماء خلفاً وسلفاً، وقد نص على أن مجرد الرؤية كاف في إطلاق الصحبة: البخاري وأبو زرعة، وغير واحد ممن صنف في أسماء الصحابة، كابن عبد البر، وابن مندة وأبي موسى المدني، وابن الأثير»^(٦).

ويرى الفقهاء والأصوليون أنه «اسم لمن اختص بالنبي عليه السلام، وطالت صحبته معه على طريق التبعية له والأخذ منه»^(٧).

قال الشوكاني: «والحق ما ذهب إليه الجمهور، وإن كانت اللغة تقتضي أن الصاحب هو من كثرت ملازمته؛ فقد ورد ما يدل على إثبات الفضيلة لمن لم يحصل له منه إلا مجرد اللقاء

(١) تهذيب اللغة، الأزهرى ١٥٣/٤.

(٢) الصحاح، الجوهري ١/١٦١.

(٣) لسان العرب ١/٥١٩.

(٤) تهذيب اللغة، الأزهرى ١٥٣/٤.

(٥) انظر: اختصار علوم الحديث، ابن كثير ص ١٧٤، نزهة النظر، ابن حجر ص ١٤٠..

(٦) اختصار علوم الحديث ص ١٧٤.

(٧) كشف الأسرار ٣/٣٨٤.

القليل أو الرؤية ولو مرة^(١). يضاف لذلك:

١. شرف منزلة النبي صلى الله عليه وسلم، وعلو قدره، وأن لصحبته عليه الصلاة والسلام مزية عن صحبة غيره.

٢. أن المحدثين حين عرفوا الصحابي بالمعنى الاصطلاحي اعتمادًا على المعنى اللغوي، أخذوا المعنى اللغوي بمعناه العام الشامل لطول الصحبة وقصرها، ولم يقصروه على بعض أفرادها، وهو طول الصحبة دون قصرها، كما فعل أهل الأصول الذين راعوا بعض أفراد التعريف، وهو طول الصحبة، ولا شك أن مراعاة المعنى اللغوي بجميع أفرادها أولى من قصره على بعضها.

٣. إن كثيرًا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لم تطل صحبتهم للنبي صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك فقد اتفق أهل الحديث الذين ترجموا للصحابة على عددهم فيهم إلى غير ذلك^(٢).

٤. أما ما يتعلق بما ذكره أنس رضي الله عنه، فإنه إنما نفى الصحبة الخاصة، وهذا لا ينافي ما اصطلاح عليه الجمهور من الاكتفاء باللقاء؛ لما مر من شرف هذا اللقاء ومزيتة، ولذا ورد في الحديث عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يأتي على الناس زمانٌ يغزو فتائم من الناس فيقال لهم: فيكم من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون: نعم فيفتح لهم، ثم يغزو فتائم من الناس فيقال لهم: فيكم من رأى من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون نعم. فيفتح لهم، ثم يغزو فتائم من الناس فيقال لهم: هل فيكم من رأى من صحب من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون نعم. فيفتح لهم)^(٣).

ويدل على رجحان الأول قصة الأشعث ابن قيس؛ فإنه كان ممن ارتد، وأتى به إلى أبي بكر الصديق أسيرًا، فعاد إلى الإسلام، فقبل منه ذلك، وزوجه أخته، ولم يتخلف أحد عن ذكره في الصحابة، ولا عن تخريج أحاديثه في المسانيد وغيرها^(٤).

(١) إرشاد الفحول، ص ٣٤٢.

(٢) انظر: صحابة رسول الله في الكتاب والسنة ص ٧١-٧٤.

(٣) اختصار علوم الحديث، ابن كثير ص ١٧٥.

والمحدث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، رقم ٢٥٣٢.

(٤) نزهة النظر، ابن حجر ص ١٤٠-١٤١.

مكانة الصحابة

أولاً: ذكر أوصافهم في الكتب السماوية السابقة:

ذكر الله سبحانه وتعالى صفة الصحابة رضي الله عنهم في قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُ فَازْرَعَهُ فَاسْتَفَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا

[الفتح: ٢٩].

يقول الإمام الطبري: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ يقول: هذه الصفة التي وصفت لكم من صفة أتباع محمد صلى الله عليه وسلم الذين معه صفتهم في التوراة ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُ﴾ و صفتهم في إنجيل عيسى صفة زرع أخرج شطأه، وهو فراخه وإنما مثلهم بالزرع المشطى؛ لأنهم ابتداءوا في الدخول في الإسلام، وهم عدد قليلون، ثم جعلوا يتزايدون، ويدخل فيه الجماعة بعدهم، ثم الجماعة بعد الجماعة، حتى كثر عددهم، كما يحدث في أصل الزرع الفرخ منه، ثم الفرخ بعده حتى يكثُر

وينمي»^(١).

وقال ابن كثير: «وقد نوه الله تبارك وتعالى بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة، ولهذا قال سبحانه وتعالى ههنا: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ ثم قال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُ﴾ أي: فراخه ﴿فَازْرَعُهُ﴾ أي: شده ﴿فَاسْتَفَظَ﴾ أي: شب و طال ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ أي: فكذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أزروه وأيدوه ونصروه، فهم معه كالشطء مع الزرع»^(٢).

وليس بنا حاجة -بعد خبر الله تعالى- أن نرجع إلى التوراة أو الإنجيل لمعرفة تفاصيل ذلك، وقد أخبرنا الله تعالى أنهم قد حرفوا كتبهم»^(٣).

- (١) جامع البيان ٣٧٢/١١ بتصرف يسير.
- (٢) تفسير القرآن العظيم ٤/٢٦٣٦-٢٦٣٧.
- (٣) ذكر ابن عاشور ما وصفه مما يصلح لتطبيق هذه الآية، فقال: «والذي وقفنا عليه في التوراة مما يصلح لتطبيق هذه الآية هو البشارة الرمزية التي في الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية من قول موسى عليه السلام: جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلاًلاً من جبل فاران، وأتى من ربوات القدس، وعن يمينه نار شريعة لهم، فأحب الشعب جميع قديسيه، وهم جالسون عند قدمك يتقبلون من أقوالك. فإن جبل فاران هو حيال الحجاز. وقوله: فأحب الشعب جميع قديسيه يشير إليه قوله: (رحماء بينهم)، وقوله: (قديسيه) يفيد معنى (تراهم ركعاً سجداً)، ومعنى (سيماهم في وجوههم من أثر السجود). وقوله في التوراة: (جالسون عند قدمك)

ثانياً: الشهادة لهم بحقيقة الإيمان:

وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا
بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١].

فضلاً عن تلك الآيات التي تثني عليهم،
وتأخذ بأيديهم في مدارج الطاعات؛ ليرتقوا
إلى أعلى الدرجات، فتوجههم أمرة ناهية،
وهي كثيرة..

من الآيات التي نصت على إيمانهم:
قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ
فَأِنَّكَ حَسْبُكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَىكَ بَصَرَهُ
وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

في الآية ثناء عظيم على الصحابة رضي
الله عنهم من وجهين:

الأول: وصفهم بالإيمان.

والآخر: امتنان الله تعالى على رسوله
صلى الله عليه وسلم بأنه أيده بهم.

وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ
اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا
وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا
أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ
فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ
فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤-٧٥].

يبين الله تعالى ما للصحابة رضي الله
عنهم من الجزاء يوم القيامة، فبين أولاً أنهم
هم المؤمنون حقاً، ثم ذكر أنه سيجازيهم

لقد شهد القرآن الكريم للصحابة رضي
الله عنهم بالإيمان في مواضع كثيرة، بل
إننا لنجزم أن كل آية صدرت بـ ﴿يَأَيُّهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فهم أول المخاطبين بها، وقد
ناهزت هذه الآيات ثمانين موضعاً، وإننا
لنلاحظ هذا الوصف العظيم حتى في باب
العتاب وتصحيح الأخطاء، من مثل قوله
تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي
وَعَدُوِّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١].

يفيد معنى قوله تعالى: (يبتغون فضلاً من
الله ورضواناً)، ويكون قوله تعالى: (ذلك)
إشارة إلى ما ذكر من الوصف، (ومثلهم في
الأنجيل كزرع أخرج شطأه فأزره فاستغلظ
فاستوى على سوقه يعجب الزراع) ابتداء
كلام مبتدأ. ويكون الوقف على قوله: (في
التوراة)، والتشبيه في قوله: (كزرع) خبره،
وهو المثل. وهذا هو الظاهر من سياق
الآية، فيكون مشيراً إلى نحو قوله في إنجيل
متى الإصحاح ١٣ فقرة ٣: (هو ذا الزارع
قد خرج ليزرع (يعني عيسى عليه السلام)
وفيما هو يزرع، سقط بعض على الطريق،
فجاءت الطيور وأكلته. إلى أن قال: وسقط
الأخر على الأرض الجيدة فأعطى ثمره بعض
مائة وآخر ستين وآخر ثلاثين. قال فقرة، ثم
قال: وأما المزروع على الأرض الجيدة، فهو
الذي يسمع الكلمة ويفهم، وهو الذي يأتي
بثمر فيصنع بعض مائة وبعض ستين وآخر
ثلاثين وهذا يتضمن نماء الإيمان في قلوبهم،
وبأنهم يدعون الناس إلى الدين حتى يكثر
المؤمنون، كما تثبت الحبة مائة سنبله، وكما
تثبت من النواة الشجرة العظيمة». التحرير
والتنوير ٢٦/٢٠٧.

تَفْسِيهِ فَأَوْلِيَّتِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

[الحشر: ٩].

وإذا كانت الآية السابقة في مدح المهاجرين، فإن هذه الآية في الثناء على الأنصار، أي: «سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وأمنوا قبل كثير منهم»^(٣).

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ، نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا رَبَّنَا نَورًا وَأَغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحریم: ٨].

قال ابن عاشور: «وفي صلة ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ إيدان بأن سبب انتفاء الخزي عنهم هو إيمانهم، ومعية المؤمنين مع النبي صلى الله عليه وسلم صحبتهم النبي صلى الله عليه وسلم»^(٤).

مما يلفت الانتباه أن أغلب الآيات التي مرت تصف جميع الصحابة بالإيمان، فقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي آتَىٰكَ بَصِيرَةً وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقْوَاهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأَنْفَال: ٦٢] في شأن من شارك في بدر^(٥).

وإذا كان لا بد من وقفة عند الآيات التي مرت، فلتكن عند قوله تعالى: ﴿

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤/٢١٠.

(٤) التحرير والتنوير ٢٨/٣٧٠.

(٥) انظر منزلة الصحابة في القرآن ص ١١.

بالمغفرة والصفح عن ذنوبهم إن كانت، ووعدهم بالرزق الكريم، وهو الحسن الكثير الطيب الشريف، وأن من يسير على نهجهم فهو معهم في الآخرة^(١).

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأَوْلِيَّتِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠].

يقول الطبري: «وهذا قضاء من الله بين فرق المفتخرين الذين افتخر أحدهم بالسقاية، والآخر بالسدانة، والآخر بالإيمان بالله والجهاد في سبيله. يقول تعالى ذكره: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله، وصدقوا بتوحيده من المشركين ﴿وَهَاجَرُوا﴾ دور قومهم ﴿وَجَهَدُوا﴾ المشركين في دين الله ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾، وأرفع منزلة عنده، من سقاة الحاج وعمار المسجد الحرام، وهم بالله مشركون ﴿وَأَوْلِيَّتِكَ﴾، يقول: وهؤلاء الذين وصفنا صفتهم، أنهم آمنوا وهاجروا وجاهدوا ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾، بالجنة، الناجون من النار»^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحًّا

(١) انظر تفسير القرآن العظيم ٢/٢٦٥.

(٢) جامع البيان ٦/٣٣٨.

وسلم قال لهم: (أنتم خير أهل الأرض) (٤). ويقول السعدي: «يخبر تعالى بفضله ورحمته، برضاه عن المؤمنين إذ يبايعون الرسول صلى الله عليه وسلم تلك المبايعة التي بيضت وجوههم، واكتسبوا بها سعادة الدنيا والآخرة» (٥).

والآيات في هذا المقام كثيرة.

وقبل أن أختتم هذا المطلب أود أن أبين أن الآيات الكريمة قد أكدت هذا المعنى في مناسبات شتى، -أعني: الشهادة لهم بحقيقة الإيمان- ولولا خشية التكرار لذكرتها في مواضعها، ولكنني سأشير إلى طرف منها:

ففيما ما يتعلق بغزوة بدر:

يقول تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَيْبَكُمْ بِتَلَاؤِهِمْ أَمْ لَا يَأْتِيكُمُ الْمُزْلَيْنِ الَّذِي إِنْ نَصَرُوا وَنَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران: ١٢٤-١٢٥].

وقال تعالى: ﴿إِذْ يُفَشِّحُكُمْ الثُّعَاصَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً يُطَهِّرُكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ

[الفتح: ١٨-١٩] يقول ابن كثير: «يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحت الشجرة، وقد تقدم ذكر عدتهم وأنهم كانوا ألفاً وأربعمائة» (١).

ولا يخفى على المتأمل سبب اختيار هذه الآية، وذلك:

• أنها عنت جمًّا غفيرًا من الصحابة رضي الله عنهم.

• أنها نصت على إيمانهم؛ بل رسوخهم في الإيمان (٢).

• إخبار الله تعالى بما في قلوبهم.

وهذا أمر خفي لا يطلع عليه إلا الله تعالى، وهي منقبة أظهرها الله تعالى لهؤلاء الكرام؛ تدل على صدقهم وإخلاصهم، يقول الطبري: «فعلم ربك يا محمد ما في قلوب المؤمنين من أصحابك إذ يبايعونك تحت الشجرة، من صدق النية، والوفاء بما يبايعونك عليه، والصبر معك» (٣).

• أنهم قد حازوا رضا الله تعالى.

يقول الألويسي عن تلك المبايعة: «استوجبت رضا الله تعالى الذي لا يعادله شيء، ويستتبع ما لا يكاد يخطر على بال، وصح برواية الشيخين وغيرهما في أولئك المؤمنين من حديث جابر أنه صلى الله عليه

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٣٣.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٧/ ٢٠٣.

(٣) جامع البيان ١١/ ٣٥٠.

(٤) روح المعاني ١٣/ ٢٦١.

والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم ٤١٥٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، رقم ١٨٥٦.

(٥) تيسير الكريم الرحمن ص ٩٤٤.

قُلُوبِكُمْ وَبَيَّنَّتْ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحَىٰ رَبِّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ [الأَنْفَال: ١١-١٢].

وقال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ [الأَنْفَال: ١٧].

تأمل قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، و﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، و﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تدرك عظم منزلة هؤلاء الصحب الكرام رضي الله عنهم.

وفيما يتعلق بغزوة أحد، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١١١﴾﴾ [آل عمران: ١٢١].

ويقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَخُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ ۖ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [آل عمران: ١٥٢].

«وقد قال فيهم الله تعالى بعدما ندبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لتعقب

المشركين بعد انتهاء معركة أحد: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَرِغَمَ الْوَسْكَيلِ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ فَغَنَّمُوا لَنَا مَقَاتِلَ الْحُنَيْنِ وَأَخْرَجُوا إِلَيْنَا الْأَعْتَابَ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٢-١٧٤] (١).

أما في غزوة الأحزاب فقد صدرت الآيات بالنداء لأهل الإيمان ﴿يَتَّيِبْنَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ يَمَا تَمَلُّونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الأحزاب: ٩].

ووصفهم بالإيمان، بل بكماله، ﴿هَٰذَاكَ أَتَيْنَا الْمُؤْمِنِينَ وَرَزَلْنَاهُمْ رِزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ١١].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢].

ثالثاً: صادقون متقون:

كان للتربية التي تلقاها الصحابة رضي الله عنهم من النبي صلى الله عليه وسلم الأثر الكبير في غرس القيم والأخلاق في نفوسهم، فلقد كان صلى الله عليه وسلم

(١) منزلة الصحابة في القرآن ص ١٤.

يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَنَصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
 وَأُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ [المحشر: ٨].

«هؤلاء الذين صدقوا قولهم بفعلهم،
 وهؤلاء هم سادات المهاجرين» (٢).
 ولنضرب مثلاً يبين صدق الصحابة
 رضي الله عنهم:

❖ موقف أنس بن النضر رضي الله عنه.
 أخرج الإمام البخاري عن أنس رضي
 الله عنه قال: (غاب عمي أنس بن النضر
 عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله غبت عن
 أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني
 قتال المشركين ليرين الله ما أصنع، فلما كان
 يوم أحد وانكشف المسلمون، قال: اللهم
 إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني:
 أصحابه، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، يعني:
 المشركين، ثم تقدم، فاستقبله سعد بن معاذ،
 فقال: يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر،
 إني أجد ريحها من دون أحد، قال سعد: فما
 استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس:
 فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف
 أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد
 قتل وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد
 إلا أخته بينانه، قال أنس: كنا نرى أو نظن
 أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه ﴿مِنَ
 الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾

يغذوهم بإرشاداته ويسلوكه، فلا غرو أن
 تأثروا به عليه الصلاة والسلام،

ولا نعني بالصدق ما يتعلق بالأقوال
 فقط، وإنما صدق القوم في أعمالهم، وفي
 نياتهم، فلما أسلموا، أسلموا قيادهم لله رب
 العالمين، فصدقوا في ذلك، فإذا ما دعوا
 لأمر سارعوا إلى تنفيذه، فقدموا أنفسهم
 رخيصة في سبيل الثبات على الدين يوم كانوا
 بمكة، يعذبون أشد العذاب، ثم تركوا مكة،
 موطنهم، وتركوا أهاليهم، والغالي والنفيس
 يوم دعا داعي الهجرة، ولم يلتفتوا إلى أي
 حظ من حظوظ الدنيا، ولا يكاد ينقضي
 العجب حينما يتأمل المرء في ترك قرشي
 مكة المكرمة، وما تعني له وللعرب، ثم
 يمضي إلى الحبشة، يحمل معه دينه، إن هذا
 بحق عين الصدق في المواقف، ثم صدقوا
 في جهادهم، فبدلوا أنفسهم وأموالهم في
 سبيل الله تعالى، وفي هذا يقول تعالى:
 ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ
 فَمِنْهُمْ مَّن قَضَىٰ مَحَبَّهُ وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ وَمَا بَدَّلُوا
 تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

قال الطبري: «أوفوا بما عاهدوه عليه
 من الصبر على البأساء والضراء، وحين
 البأس» (١).

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿الْفُقَرَاءُ
 الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٨٠.

(١) جامع البيان ١٠/ ٢٧٩.

إلى آخر الآية^(١).

قال ابن حجر: «وفيه فضيلة ظاهرة لأنس بن النضر، وما كان عليه من صحة الإيمان، وكثرة التوقي والتورع وقوة اليقين»^(٢).

رابعاً: نفي الخزي عنهم يوم القيامة وإثبات الكرامة لهم:

لما كان للصحابة الكرام هذا الشرف العظيم، وهو صحبة النبي صلى الله عليه وسلم ونصرته، وما قاموا به من جهد عظيم في سبيل الله تعالى، فقد وعدهم الله تعالى على ذلك أحسن الوعد.

يقول تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبًا إِلَىٰ اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ، تُوْرُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَأْتِنِيهِمْ يَقُولُونَ رَيْبًا أَلَيْسَ لَنَا تُورُونَآ وَأَغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ [التحرير: ٨].

يقول ابن عاشور: «انتفاء الخزي يومئذ، يستلزم الكرامة إذ لا واسطة بينهما، وفي صلة ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ إيذان بأن سبب انتفاء الخزي عنهم هو: إيمانهم وفي هذه الآية دليل على المغفرة لجميع أصحاب

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب قول الله عز وجل: (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) رقم ٢٨٠٥.

(٢) فتح الباري ٦/ ١٠٠.

النبي صلى الله عليه وسلم»^(٣).

وقال البقاعي في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾: «وهم الصحابة رضي الله عنهم إن كان المراد المعية في مطلق الزمان، وسابقوهم إن كان المراد بالوصف أو زمان مخصوص كبدر وبيعة الرضوان»^(٤).

والحقيقة أن الكرامة الحقيقية في اصطفاء الله تعالى هذا الجيل ليكون في صحبة سيد ولد آدم، رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاتم النبيين، ولعلنا نلاحظ هذا الأمر في قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٧].

وما يوحي به التقديم؛ فيكم لا في غيركم، ويا له من شرف عظيم؛ إذ اختارهم رب العالمين ليقوموا بهذا الأمر العظيم: مشاركة الرسول صلى الله عليه وسلم في حمل عبء نشر الرسالة، ولقد قاموا بها خير قيام، حتى استحقوا وصف: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قال ابن كثير بعد أن ذكر الأقوال في المراد بهذه الآية: «الصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة، كل قرن بحسبه، وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَكَذَٰلِكَ

(٣) التحرير والتنوير ٢٨/ ٣٧٠ بحذف يسير.

(٤) نظم الدرر ٨/ ٥٤.

والذي نود تأكيده، أن الجميع قد وعدوا الجنة بنص الآية التي قررت نفاضلهم، يقول تعالى في الآية نفسها: ﴿وَكَلَّا وَعَدَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ قال القرطبي مبيناً المراد من الآية: «المتقدمون المتناهون السابقون، والمتأخرون اللاحقون، وعدهم الله جميعاً الجنة مع تفاوت الدرجات»^(٣).
والنص على أن الجميع وعدوا الحسنى؛ «لثلا يهدر جانب الآخر بمدح الأول دون الآخر، فيتوهم متوهم ذمه، فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه مع تفضيل الأول عليه»^(٤).

يقول ابن عاشور: «وقوله: ﴿وَكَلَّا وَعَدَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ احتراس من أن يتوهم متوهم أن اسم التفضيل مسلوب المفاضلة للمبالغة، مثل ما في قول: ﴿قَالَ رَبِّ النَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣].»

أي: حبيب إلي دون ما يدعونني إليه من المعصية، وعبر بـ ﴿الْحَسَنَى﴾؛ لبيان أن الدرجة هي درجة الحسنى؛ ليكون للاحتراس معنى زائد على التأكيد وهو ما فيه من البيان، والحسنى: لقب قرآني إسلامي يدل على خيرات الآخرة.

قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

جَمَلْتُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴿ أي: خيارًا ﴿لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْنَا شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. »

وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد صلى الله عليه وسلم؛ فإنه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرع كامل عظيم، لم يعطه نبياً قبله ولا رسولاً من الرسل؛ فالعمل على مناجاه وسبيله، يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه»^(١).

خامساً: الوعد لهم جميعاً بالحسنى:

لاشك أن الصحابة رضي الله عنهم يتفاوتون في الفضل، فهم ليسوا على درجة واحدة، وهذا مما دل عليه القرآن الكريم والسنة المطهرة.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه أبو سعيد الخدري: (لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً، ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه)^(٢).

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٣٦، بحذف سير.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: لو كنت متخذاً خليلاً، رقم ٣٦٧٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ٢٤١.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٧٧١.

وهذه الآية أصل في تفاضل أهل الفضل فيما فضلوا فيه، وأن الفضل ثابت للذين أسلموا بعد الفتح من أهل مكة وغيرهم. وبش ما يقوله بعض المؤرخين من عبارات تؤذن بتتقيص من أسلموا بعد الفتح من قريش مثل كلمة «الطلاق»، وإنما ذلك من أجل حزازات في النفوس قبلية أو حزبية، والله يقول: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَلْمِزُ الْقَسُوفُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] (١). والذي يعنينا هنا أن الصحابة الكرام رضي الله عنهم جميعاً قد وعدوا بالجنة.

سادساً: الرضوان من الله تعالى:

إن غاية ما يرجوه المسلم: رضا الله سبحانه وتعالى، ولقد بشر الله تعالى الصحابة رضي الله عنهم بذلك، وحازوا هذا الفضل وهم في دار الدنيا.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

ولبيان من هم، وكم عددهم؟ أذكر ما أخرجه الإمام البخاري بسنده (عن البراء رضي الله عنه قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد

(١) التحرير والتنوير ٢٧/ ٣٧٥-٣٧٦، بحذف يسير.

الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم أربع عشرة مائة، والحديبية: بئر فنزحناها، فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإزاء من ماء، فتوضأ، ثم مضمض ودعا، ثم صبه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا) (٢).

يقول ابن كثير عن هذه الآية الكريمة: «يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة، وقوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الصدق والوفاء والسمع والطاعة» (٣).

وقل مثل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

يقول الطبري: «والذين سبقوا الناس أولاً إلى الإيمان بالله ورسوله ﴿مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾، الذين هاجروا قومهم وعشيرتهم، وفارقوا منازلهم وأوطانهم ﴿وَالْأَنْصَارِ﴾، الذين نصرُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أعدائه، من أهل الكفر بالله ورسوله ﴿وَالَّذِينَ﴾

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم ٤١٥٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٦١، بحذف يسير.

صحابة لهم مكانة خاصة

إذا كان الصحابة الكرام قد نالوا شرف الصحبة بالتقائهم بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، فإنهم ولا شك يتفاوتون في الفضل، فهناك من بادر وأسلم يوم كان الإسلام غريباً، والناس يكذبون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويؤذونه، وهناك من تأخر إسلامه، وبين هذين مراتب لا يعلمها إلا الله تعالى، وهذا ما صرحت به الآية الكريمة: ﴿لَا يَسْتَوِي سِنكُم مِّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلِ أَوْلِيكِ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

قال ابن حجر: «لا خفاء برجحان رتبة من لازمه صلى الله عليه وسلم، وقاتل معه، أو قتل تحت رايته، على من لم يلازمه، أو لم يحضر معه مشهداً، وعلى من كلمه يسيراً، أو ماشاه قليلاً، أو رآه على بعد، أو في حال الطفولية، وإن كان شرف الصحبة حاصلاً للجميع»^(٣).

وستتناول هذا الأمر في النقاط الآتية:

أولاً: السابقون من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم:

خص الله تعالى المهاجرين والأنصار بشرف عظيم.

أَتَبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ، يقول: والذين سلكوا سبيلهم في الإيمان بالله ورسوله، والهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام، طلب رضا الله ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾^(١). ويقول ابن كثير: «يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم والنعيم المقيم، قال الشعبي: السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار: من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية».

ثم يعقب على هذا بقوله: «فيا ويل من أبغضهم أو سبهم، أو أبغض أو سب بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه»^(٢).

فهذه الآيات، ومثلها كثير، تدل على رفعة شأن الصحابة، وأنهم نالوا أعلى ما يمكن أن يتطلع إليه بشر، وهو رضى رب العالمين.

(١) جامع البيان ٦/٤٥٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/١٣٣.

(٣) نزهة النظر ص ١٤٢.

يقول سبحانه: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقد اختلف العلماء في المراد بالسابقين على أقوال،^(١) من أهمها:

الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم الذين صلوا إلى القبليتين وشهدوا بدرًا.

الثاني: عن الشعبي: أنهم الذين بايعوا بيعة الرضوان.

قال الرازي: «والصحيح عندي أنهم السابقون في الهجرة، وفي النصر، والذي يدل عليه أنه ذكر كونهم سابقين ولم يبين أنهم سابقون في ماذا فبقي اللفظ مجملًا، إلا أنه وصفهم بكونهم مهاجرين وأنصارًا، فوجب صرف ذلك اللفظ إلى ما به صاروا مهاجرين وأنصارًا وهو الهجرة والنصرة، فوجب أن يكون المراد منه السابقون الأولون في الهجرة والنصرة إزالة للإجمال عن اللفظ، وأيضًا فالسبق إلى الهجرة طاعة عظيمة من حيث إن الهجرة فعل شاق على النفس، ومخالف للطبع، فمن أقدم عليه أولاً صار قدوة لغيره من هذه الطاعة، وكان ذلك

مقويًا لقلب الرسول عليه الصلاة والسلام، وسببًا لزوال الوحشة عن خاطره، وكذلك سبق في النصر، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام لما قدم المدينة، فلا شك أن الذين سبقوا إلى النصر والخدمة، فازوا بمنصب عظيم»^(٢).

الثالث: يتناول جميع الصحابة؛ لأن جملة الصحابة موصوفون بكونهم سابقين أولين بالنسبة إلى سائر المسلمين، وكلمة «من» في قوله: ﴿مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ ليست للتبويض، بل للتبيين، كقوله: ﴿فَاجْتَبَيْتُمُ الرِّجْسَ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحج: ٣٠].

وذهب إلى هذا كثير من الناس^(٣). وفي أمر المهاجرين يقول ابن كثير: «فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد نافع؛ لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرهًا، بل يهاجر فيترك ماله وولده وأرضه رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة»^(٤).

ونلاحظ في هذه الآية الآتي: الإتيان بالفعل الماضي في ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ..﴾ ولا شك أن هذا يقتضي تحقق هذا الأمر فيهم، وأنه لن يتغير، ولأنه غير مقيد بزمن، ولا ارتباطه بعلّة قد ثبتت، وهي الهجرة والنصرة، يقول

(٢) مفاتيح الغيب ١٦٨/١٦ - ١٦٩.

(٣) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/١٨٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٨١/١.

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/٣٧٠ - ٣٧١.

الرازي - مناقشاً من يتناول إمامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بالطعن - : «قوله: لم قلت: إنه بقي موصوفاً بهذه الصفة بعد إقدامه على طلب الإمامة؟

قلنا: قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ يتناول جميع الأحوال والأوقات، بدليل أنه لا وقت ولا حال إلا ويصح استثناءه منه؛ فيقال رضي الله عنهم إلا في وقت طلب الإمامة، ومقتضى الاستثناء إخراج ما لولاه لدخل تحت اللفظ. أو نقول: إنا بينا أنه تعالى وصفهم بكونهم سابقين مهاجرين، وذلك يقتضي أن المراد كونهم سابقين في الهجرة، ثم لما وصفهم بهذا الوصف أثبت لهم ما يوجب التعظيم، وهو قوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ والسبق في الهجرة وصف مناسب للتعظيم، وذكر الحكم عقيب الوصف المناسب، يدل على كون ذلك الحكم معللاً بذلك الوصف، فدل هذا على أن التعظيم الحاصل من قوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ معلل بكونهم سابقين في الهجرة، والعلة ما دامت موجودة، وجب ترتب المعلول عليها، وكونهم سابقين في الهجرة وصف دائم في جميع مدة وجودهم، فوجب أن يكون ذلك الرضوان حاصلًا في جميع مدة وجودهم.

جَنَّتِ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ، وذلك يقتضي أنه تعالى قد أعد تلك الجنات، وعينها لهم، وذلك يقتضي بقاءهم على تلك الصفة التي لأجلها صاروا مستحقين لتلك الجنات، وليس لأحد أن يقول: المراد أنه تعالى أعدها لهم لو بقوا على صفة الإيمان، لأننا نقول: هذا زيادة إضمار، وهو خلاف الظاهر. وأيضًا فعلى هذا التقدير: لا يبقى بين هؤلاء المذكورين في هذا المدح، وبين سائر الفرق فرق؛ لأنه تعالى أعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار ولفرعون وهامان وأبي جهل وأبي لهب، لو صاروا مؤمنين.

ومعلوم أنه تعالى إنما ذكر هذا الكلام في معرض المدح العظيم والثناء الكامل، وحمله على ما ذكره يوجب بطلان هذا المدح والثناء، فسقط هذا السؤال. فظهر أن هذه الآية دالة على فضل أبي بكر، وعلى صحة القول بإمامته قطعاً^(١).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ يَأْخُذُونَ﴾ قيد هذا الوصف بكونهم محسنين، في حين خلا وصف المهاجرين والأنصار من ذلك، وفي هذا يقول ابن عاشور: «وإنما قيد هذا الفريق خاصة؛ لأن السابقين الأولين ما بعثهم على الإيمان إلا الإخلاص، فهم محسنون، وأما الذين اتبعوهم فمن بينهم من آمن اعتزازًا بالمسلمين حين صاروا

أو نقول: إنه تعالى قال: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾

(١) مفاتيح الغيب ١٦/١٧١.

مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَحِدُّونَ فِي
صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ﴿٩﴾ [الحشر: ٩].

ثم أورد حديثاً بسنده «عن غيلان بن
جرير قال: (قلت لأنس: أرايت اسم الأنصار
كتمت تسمون به، أم سماكم الله؟ قال: بل
سمانا الله)»^(٤).

ثم أورد تحت باب حب الأنصار من
الإيمان، حديث البراء رضي الله عنه
قال: (سمعت النبي صلى الله عليه وسلم
أو قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم
(الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم
إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله ومن
أبغضهم أبغضه الله)»^(٥).

وحديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن
النبي صلى الله عليه وسلم قال: (آية الإيمان
حب الأنصار وآية النفاق بغض الأنصار)^(٦).

ثانياً: المؤمنون من أهل الكتاب رضي
الله عنهم:

أهل الكتاب يراد بهم اليهود والنصارى،
وقد أكثر القرآن الكريم من ذكرهم، وميزهم
عن المشركين، وهذا من العدل الرباني،
ولعل في إطلاق هذا اللقب عليهم، ما يبين

أكثر أهل المدينة، فمنهم من آمن وفي إيمانه
ضعف وتردد، مثل المؤلفلة قلوبهم، وربما
نزل بهم إلى النفاق، وربما ارتقى بهم إلى
الإيمان الكامل»^(١).

وقال البخاري: «باب مناقب المهاجرين
وفضلهم، ثم أورد هذه الآية: ﴿لِلْفُقَرَاءِ
الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ
يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيُصْرُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ
أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾»^(٨) [الحشر: ٨].

وقال: ﴿إِلَّا تَصُورُوهُ فَقَدْ نَسَرَهُ
اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾
[التوبة: ٤٠].

قالت عائشة وأبو سعيد وابن عباس
رضي الله عنهم: وكان أبو بكر مع النبي
صلى الله عليه وسلم في الغار»^(٢).

ثم أورد حديثاً بسنده عن أبي بكر رضي
الله عنه قال: (قلت للنبي صلى الله عليه
وسلم وأنا في الغار: لو أن أحدهم نظر تحت
قدميه لأبصرنا، فقال: (ما ظنك يا أبا بكر
بائنين الله ثالثهما)»^(٣).

ثم قال: «باب مناقب الأنصار، وأورد
هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾

(١) التحرير والتنوير ١٨/١٠.

(٢) علقه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل
أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب
مناقب المهاجرين وفصلهم.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل
أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب
مناقب المهاجرين وفصلهم، رقم ٣٦٥٣.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب
الأنصار، باب مناقب الأنصار، رقم ٣٧٧٦.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب
الأنصار، باب مناقب الأنصار، رقم ٣٧٨٣.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب
الأنصار، باب مناقب الأنصار، رقم ٣٧٨٤.

الكتاب، كعبد الله بن سلام، وأسد بن عبيد، وثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وغيرهم، أي: لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب، وهؤلاء الذين أسلموا، ولهذا قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ أي: ليسوا كلهم على حد سواء، بل منهم المؤمن ومنهم المجرم.

ولهذا قال تعالى: ﴿مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ أي: قائمة بأمر الله مطيعة لشرعه، متبعة نبي الله، فهي قائمة، يعني: مستقيمة ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي: يقومون الليل ويكثرون التهجد، ويتلون القرآن في صلواتهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وهؤلاء هم المذكورون في آخر السورة ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوا﴾ أي: لا يضيع عند الله، بل يجزيهم به أوفر الجزاء ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ أي: لا يخفى عليه عمل عامل، ولا يضيع لديه أجر من أحسن عملاً^(٢).

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنَ

السبب في ذلك، وفيه لوم لهم، على عدم المسارعة إلى الإيمان، فقد عادى أكثرهم الإسلام ونبهه صلى الله عليه وسلم وكادوا له، ومع ذلك فقد أسلم منهم نفر قليل، كان للقرآن إشادة بهم، من ذلك:

قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (١١٣) ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١١٤) ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوا﴾ (١١٥) ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (١١٥)

[آل عمران: ١١٣ - ١١٥]

قال ابن العربي: «وقد اتفق المفسرون أنها نزلت فيمن أسلم من أهل الكتاب، وعليه يدل ظاهر القرآن ومفتح الكلام نفي المساواة بين من أسلم منهم وبين من بقي منهم على الكفر، إلا أنه روي عن ابن مسعود أن معناه نفي المساواة بين أهل الكتاب وأمة محمد صلى الله عليه وسلم. وقد روي عن ابن عباس أنها نزلت في عبد الله بن سلام ومن أسلم معه من أهل الكتاب»^(١).

وقال ابن كثير: «والمشهور عند كثير من المفسرين كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره، ورواه العوفي عن ابن عباس أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل

(٢) تفسير القرآن العظيم / ١ - ٥٤٤ - ٥٤٥.

(١) أحكام القرآن / ١ - ٣٨٦.

قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِذْ يَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٧﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٨﴾ وَإِذْ سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِي الْجَهْلِيَّينَ ﴿٥٩﴾ [القصص: ٥٢-٥٥].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَتَّىٰ تَلَائِيهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١].

وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٧٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحٰنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٧٨﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةَ الَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ﴾ إلى قوله: ﴿فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢-٨٣].

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ من قبل هذا القرآن، كنا مسلمين، أي: موحدين مخلصين لله مستجيبين له.

قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُم

مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم الثاني، ولهذا قال: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ على اتباع الحق، فإن تجشم مثل هذا شديد على النفوس.

وقد ورد في الصحيح عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت له أمة، فأدبها فأحسن تأديبها، ثم اعتقها فتزوجها) (١).

وقال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدُوًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةَ الَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ رَجَعُوا ءَاعْيُنُهُمْ تَفِيضٌ مِّنَ الدَّمْعِ وَمَا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمَنَّا فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوِّيمِ الصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَنبَاهُهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢١٢٨-٢١٢٩، بحذف يسير. والحديث في أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب فضل من أسلم من أهل الكتاب، رقم ٣٠١١.

يشهدون لأنبيائك يوم القيامة، أنهم قد بلغوا أممهم رسالاتك^(٢).

إلى غير ذلك من الآيات. نستخلص من الآيات التي تحدثت عن مؤمني أهل الكتاب الآتي:

١. أن أهل الكتاب ليسوا على طبيعة واحدة - كما يظن - بل منهم من يرجى فيه الخير، فيدخل في الإسلام.

٢. أن النصارى أقرب لقبول الحق من اليهود، وقد بينت الآيات سبب ذلك، وقد يقال: إن أكثر من أسلم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم من اليهود، والجواب: أن مرد ذلك وجود اليهود في المدينة، ورؤيتهم للنبي صلى الله عليه وسلم وأحواله، وإننا لنجد مصداق ما أخبر به القرآن الكريم في عصرنا هذا من كثرة دخول النصارى في الإسلام.

٣. وصف القرآن الكريم من آمن منهم بأوصاف تدل على صدقهم وإخلاصهم، من ذلك:

• أنهم يتلون آيات الله تعالى في صلواتهم أثناء الله وأطراف النهار.

• أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر، وما أنزل على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وما أنزل من الكتب.

يقول الطبري: «إن الله تعالى ذكره أخبر عن النفر الذين أثنى عليهم من النصارى بقرب مودتهم لأهل الإيمان بالله ورسوله، أن ذلك إنما كان منهم لأن منهم أهل اجتهاد في العبادة، وترهب في الديارات والصوامع، وأن منهم علماء بكتبهم وأهل تلاوة لها، فهم لا يبعدون من المؤمنين لتواضعهم للحق إذا عرفوه، ولا يستكبرون عن قبوله إذا تبينوه؛ لأنهم أهل دين واجتهاد فيه، ونصيحة لأنفسهم في ذات الله، وليسوا كاليهود الذين قد دربوا بقتل الأنبياء والرسول، ومعاندة الله في أمره ونهيه، وتحريف تنزيله الذي أنزله في كتبه»^(١).

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ وفيض العين من الدمع: امتلاؤها منه، ثم سيلانه منها، كفيض النهر من الماء، وفيض الإناء، وذلك سيلانه عن شدة امتلائه ﴿بِمَا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ لمعرفةهم بأن الذي يتلى عليهم من كتاب الله الذي أنزله إلى رسول الله حق، ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ صدقنا لما سمعنا ما أنزلته إلى نبيك محمد صلى الله عليه وسلم من كتابك، وأقرنا به أنه من عندك، وأنه الحق لا شك فيه. ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم، الذين

(٢) جامع البيان ٥/٦-٨ بتصرف يسير.

(١) جامع البيان ٥/٦.

ولقد سبقت الإشارة إلى ذكر أسماء بعض من أسلم، كعبد الله بن سلام، وأسد بن عبيد، وثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية رضي الله عنهم.

❖ أنهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويسارعون في الخيرات.

❖ أنهم خاشعون متذللون بين يدي الله تعالى، بحيث يخرون للأذقان سجداً، وتفيض أعينهم من الدمع، ويكون من الخشوع إذا تليت عليهم آيات القرآن الكريم؛ لمعرفة الحق.

❖ لا يشترون بآيات الله تعالى ثمناً قليلاً، ولا يكتمون شيئاً مما بأيديهم من البشارة بالرسول صلى الله عليه وسلم.

❖ يدعون الله تعالى أن يكتبهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم، ومع أصحابه رضي الله عنهم.

❖ يدرءون بالحسنة السيئة، وينفقون مما رزقهم الله تعالى.

❖ يعرضون عن اللغو، ولا يقابلون الجاهلين بالمثل.

ثم وعدهم الله عز وجل بأمر كثيرة، منها:

١. لن يضيع الله تعالى شيئاً مما قدموه من الأعمال الصالحة، بل يجازيهم عليها بأحسن الجزاء.

٢. سيؤتيهم الله عز وجل أجرهم مرتين.

٣. سيثيبهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها^(١).

(١) فضائل الصحابة في القرآن الكريم ص ١٨٤، بتصرف يسير.

نماذج قرآنية لمواقف الصحابة

ضرب الصحابة رضي الله عنهم أروع المواقف في الالتزام بأوامر الله تعالى وأوامر رسوله صلى الله عليه وسلم، والأمثلة كثيرة، سنقتصر على بعضها:

أولاً: الإذعان والتسليم:

إن من حقائق هذا الدين ومسلماته، أن الداخل فيه لا بد أن يسلم وجهه لله سبحانه وتعالى، وقد أرشد القرآن الكريم لذلك.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

يقول الشنقيطي: «معنى إسلام وجهه لله: إطاعته وإذعانه، وانقياده لله تعالى بامثال أمره، واجتتاب نهيه»^(١).

والآيات في هذا المعنى كثيرة، ولقد كان للصحابة رضي الله عنهم فضل السبق في هذا الأمر، كما هو الشأن في كل خير، ولنضرب بعض الأمثلة:

ما وقع من امتثال أمر الله تعالى في يوم حمراء الأسد:

يقول سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الزمر: ١٢٣].

(١) أضواء البيان/١/٣٣٢.

لَهُمُ النَّاسُ إِنْ النَّاسُ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاسْخَوْهُمْ فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله وبقم الوكيل ﴿١٧٢﴾ فأنقلبوا بنعمة من الله وفضل لَمْ يَمَسَّسَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٣﴾ إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخُوفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ [آل عمران: ١٧٢-١٧٥].

يقول ابن كثير: «هذا كان يوم حمراء الأسد، وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين، كروا راجعين إلى بلادهم، فلما استمروا في سيرهم، ندموا، لم لا تمموا على أهل المدينة وجعلوها الفيصلة، فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، نذب المسلمين إلى الذهاب وراءهم؛ ليرعبهم ويرهبهم أن بهم قوة وجلداً، ولم يأذن لأحد سوى من حضر الواقعة يوم أحد، فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والإثخان طاعة لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم»^(٢).

ولذلك امتدحهم الله عز وجل، فقال: ﴿ءَأَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَعْرِفُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

أخرج مسلم عن أبي هريرة قال: (لما

(٢) تفسير القرآن العظيم/١/٥٨٦.

نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوُا يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ۝٢٨٤﴾ [البقرة: ٢٨٤].

(قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الركب فقالوا: أي رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا، بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير). قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فلما اقترأها القوم، ذلت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها ﴿إِنَّمَا أَرْسَلْنَا بِمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيَّتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يَفِرُّوْنَ بَيْنَ أَيْدِي رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝٢٨٥﴾، فلما فعلوا ذلك، نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال: نعم، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قال: نعم، ﴿رَبَّنَا وَلَا

تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال: نعم ﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قال: نعم^(١).

فأنت ترى حسن امتثال الصحابة لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أمرهم بأن يقولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، وقد استجاب الله تعالى لهم لصدقهم.

هذا فيما يتعلق بأمر جماعتهم، أما أفرادهم، فأذكر هذه الحادثة فقط؛ لثلاث أطول المقام، أخرج الإمام البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه: (كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما أنزلت هذه الآية ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ﴾ [آل عمران: ٩٢].

قام أبو طلحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ﴾ وإن أحب أموالي إلي بيرحاء، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بيخ،

(١) صحيح مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق، رقم ١٩٩.

إلى الخروج من بين أظهرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَأُودُوا فِي سَبِيلِي﴾ أي: إنما كان ذنبهم إلى الناس أنهم آمنوا بالله وحده، كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ الرُّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [المستحثة: ١].

وقال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨] ﴿٢٧﴾.

آيات في هجرة الصحابة

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

يقول الطبري: «والذين تحولوا من سلطان أهل الشرك هجرة لهم، وخوف فتتهم على أديانهم، وحاربوهم في دين الله ليدخلوهم فيه وفيما يرضي الله ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾، أي: يطمعون أن يرحمهم الله فيدخلهم جنته بفضل رحمته إياهم. ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ﴾، أي: سائر ذنوب عباده بعفوه عنها، متفضل عليهم بالرحمة» ﴿٣﴾.

وقال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا أُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ

ذلك مأل رابعٌ، ذلك مأل رابعٌ، وقد سمعت ما قلت، وإنني أرى أن تجعلها في الأقربين). فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله. فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه ﴿١﴾.

ثانيًا: الهجرة:

لقد كانت الهجرة برهانا واضحا على صدق إيمان الصحابة رضي الله عنهم، فهي ترك للأوطان والأهل وللمال، إلى مستقبل - في عرف الناس - مجهول، ولكن الإيمان بالله تعالى والتوكل عليه يهون كل عسير، ويجعل من رضاه عز وجل غاية تستحق بذل كل غال ونفيس، وهذا ما فعله الصحابة في الهجرتين: إلى الحبشة، وإلى المدينة، لقد كان أمر هذا الدين أعظم في أنفسهم من كل شيء.

قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا أُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ بَاطِنِ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ تَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

يقول ابن كثير: «﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ أي: تركوا دار الشرك وأتوا إلى دار الإيمان، وفارقوا الأحباب والمخلان والإخوان والجيران، ﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ أي: ضايقتهم المشركون بالأذى حتى ألجؤوهم

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/٦٠٤-٦٠٥.

(٣) جامع البيان ٢/٣٦٨.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، رقم ١٤٦١.

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مَنِ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ
عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٦٥﴾ [آل عمران: ١٩٥].

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ قومهم من أهل الكفر وعشيرتهم في الله، إلى إخوانهم من أهل الإيمان بالله، والتصديق برسوله، ﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ وهم المهاجرون الذين أخرجهم مشركو قريش من ديارهم بمكة، ﴿وَأُودُوا فِي سَبِيلِ﴾، يعني: وأودوا في طاعتهم ربهم، وعبادتهم إياه مخلصين له الدين، وذلك هو «سبيل الله» التي أذى فيها المشركون من أهل مكة المؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم من أهلها»^(١).

وعدهم الله تعالى على ذلك، العفو والمغفرة، وأن يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، والآية تشمل من هاجر إلى الحبشة، ومن هاجر إلى المدينة.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء: ١٠٠].

هذا تحريض على الهجرة، ووعدهم بالأجر العظيم عليها: الأجر الدنيوي والأخروي. ولذا استجاب الصحابة لنداء ربهم، فتركوا كل شيء لنيل رضاه، فاستحقوا بذلك ثنائه عز وجل، يقول تعالى: ﴿إِنَّ

(١) المصدر السابق ٣/ ٥٥٦.

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ [البقرة: ٢١٨].

تزكية لقلوبهم، ووعدهم بالمغفرة، وبيان لسبب خروجهم، ووصفهم بالصدق، فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر: ٨].

وأنهم ما أخرجوا إلا لإيمانهم بالله عز وجل: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠].

وذكر جزاءهم، في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُؤَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النحل: ٤١-٤٢].

وما في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥] التي مر ذكرها قريبا.

هذا فيما يتعلق بمجموعهم، أما إذا تحدثنا عن أفرادهم، فلا ريب أن سيدهم في ذلك الصديق رضي الله عنه، الذي سجل القرآن الكريم موقفه العظيم من رسول الله تعالى، يقول تعالى: ﴿إِلَّا نَصْرُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا قَانِصِينَ إِذْ هَمَّ فِي الْفَارِ إِذْ يَقُولُ

ثم أورد بسنده عن البراء قال: (اشترى أبو بكر رضي الله عنه من عازبٍ رجلاً بثلاثة عشر درهماً، فقال أبو بكر لعازب: مر البراء فليحمل إلي رحلي، فقال عازب: لا، حتى تحدثنا كيف صنعت أنت ورسول الله صلى الله عليه وسلم، حين خرجتما من مكة والمشركون يطلبونكم، قال: ارتحلنا من مكة فأحيينا أو سرينا ليلتنا ويومنا حتى أظهرنا وقام قائم الظهيرة، فرميت ببصري هل أرى من ظلٍ فأوي إليه، فإذا صخرةً أتيتها، فنظرت بقية ظلٍ لها، فسويته ثم فرشت للنبي صلى الله عليه وسلم فيه، ثم قلت له: اضطجع يا نبي الله، فاضطجع النبي صلى الله عليه وسلم، ثم انطلقت أنظر ما حولي هل أرى من الطلب أحدًا، فإذا أنا براعي غنم يسوق غنمه إلى الصخرة يريد منها الذي أردنا، فسألته فقلت له: لمن أنت يا غلام؟ قال: لرجل من قريش سماه، فعرفته، فقلت: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم، قلت: فهل أنت حالبٌ لنا؟ قال: نعم، فأمرته فاعتقل شاة من غنمه، ثم أمرته أن ينفض ضرعها من الغبار، ثم أمرته أن ينفض كفيه، فقال هكذا ضرب إحدى كفيه بالأخرى، فحلب لي كبةً من لبن، وقد جعلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم إداوةً على فيها خرقةٌ فصبيت على اللبن حتى برد أسفله،

مناقب المهاجرين وفضلهم.

لِصَاحِبِهِ، لَا تَحْزَنَ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا
فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ
بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ
الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةَ
اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَّةُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

[التوبة: ٤٠].

يقول الطبري: «وإنما عنى جل ثناؤه بقوله: ﴿ثَاقِبٌ أَنتَين﴾، رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبا بكر رضي الله عنه، لأنهما كانا اللذين خرجا هارين من قريش إذ هموا بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، واختفيا في الغار»^(١).

قال الإمام البخاري: «باب مناقب المهاجرين وفضلهم، منهم أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة التيمي رضي الله عنه، وقول الله تعالى: ﴿الْفُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

وقال الله: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

قالت عائشة وأبو سعيد وابن عباس رضي الله عنهم: وكان أبو بكر مع النبي صلى الله عليه وسلم في الغار»^(٢).

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٧٤.

(٢) علقه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب

عليه وسلم فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين) أو كلمة نحوها، قال: وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة^(٣). ولقد وثق القرآن الكريم أحداث هذه الغزوة في سورة الأنفال، حتى لقد سماها ابن عباس رضي الله عنهما سورة بدر. وذكر طرفًا منها في سورة آل عمران، ويظهر فضل الله تعالى على الصحابة في هذه الغزوة، في أمور متعددة، نذكر منها:

١. نصر الله تعالى لهم رغم قلة عددهم. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

قال ابن كثير: «أي: يوم بدر، وكان في جمعة وافق السابع عشر من رمضان، من سنة اثنتين من الهجرة، وهو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله، ودمغ فيه الشرك وخرب محله، هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ، فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا، فيهم فرسان وسبعون بعيرًا، والباقون مشاة، ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه، وكان العدو يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف في سوابغ الحديد والبيض، والعدة الكاملة والخيول المسومة والحلي الزائد، فأعز الله رسوله،

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرًا، رقم ٣٩٩٢.

فانطلقت به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فوافقته قد استيقظ، فقلت: اشرب يا رسول الله، فشرب حتى رضيت، ثم قلت: قد آن الرحيل يا رسول الله، قال: بلى، فارتحلنا والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا أحدٌ منهم غير سراقه بن مالك بن جعشم على فرس له، فقلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله فقال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾^(١).

ثم أورد حديثًا آخر بسنده عن أبي بكر رضي الله عنه، قال: قلت للنبي صلى الله عليه وسلم وأنا في الغار: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا فقال: (ما ظنك يا أبا بكرٍ باثنين الله ثالثهما)^(٢).

ثالثًا: غزوة بدر:

ارتباط غزوة بدر بالصحابة وثيق، ذلك أنها من المعالم البارزة في حياتهم التي نالوا بها شرفًا عظيمًا، حتى إنه لينسب إليها من اشترك فيها فيقال: بدري، ولم تحظ غزوة أخرى بهذا الشرف. وثمة مقام آخر، أخرج الإمام البخاري بسنده عن معاذ بن رفاع بن رافع الزرقي عن أبيه، وكان أبوه من أهل بدر، قال: (جاء جبريل إلى النبي صلى الله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب مناقب المهاجرين. وفضلهم، رقم ٣٦٥٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب مناقب المهاجرين. وفضلهم، رقم ٣٦٥٣.

﴿مِنَّةٌ﴾ [الأَنْفَال: ١١].

«يذكرهم الله تعالى بما أنعم به عليهم من إلقائه للناس عليهم أماناً أمنهم به من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عددهم»^(٣).

٤. إنزال الماء من السماء.

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيَطَّهَّرَكُم بِهِ وَيُدْهَبَ عَنْكُم رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأَنْفَال: ١١].

وهذه منة أخرى، أنعمها الله تعالى عليهم وهم محتاجون إليها، وهي أنه تعالى أنزل عليهم المطر، وإسناده هذا الإنزال إليه عز وجل؛ للتنبيه على أنه أكرمهم به، ليثبت أقدامهم، ويذهب عنهم وساوس الشيطان، فطهرهم بالمطر ظاهراً وباطناً^(٤).

٥. إحياء الله تعالى للملائكة بثبيت المؤمنين.

قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأَنْفَال: ١٢].

«وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم ليشكروه عليها، وهو أنه تعالى وتقدس

(٣) المصدر السابق ٢/ ١١٣.

(٤) انظر المصدر السابق، ٢/ ٢١٤، التحرير والتنوير ٩/ ٢٧٩.

وأظهر وحيه وتنزيله، وبيض وجه النبي وقبيله، وأخزى الشيطان وجيله.

ولهذا قال تعالى ممتناً على عباده المؤمنين وحزبه المتقين: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أي: قليل عددكم؛ ليعلموا أن النصر إنما هو من عند الله، لا بكثرة العدد والعدد^(١).

٢. إمداد الله تعالى لهم بالملائكة.

قال عز وجل وجل: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَيْبِكُمْ بِتَلْفِئِهِ أَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُزَلِّينَ﴾ [١٣] ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ أَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [١٤] آل عمران: ١٢٤-١٢٥].

ولمعرفة منزلة الصحابة رضي الله عنهم تأمل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلَسَطَمِينَ قُلُوبِكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْمَرْبِزِ الْعَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

أي: «وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزائها إلا بشارة لكم وتطييباً لقلوبكم وتطميناً، وإلا فإنما النصر من عند الله، الذي لو شاء لا تنصر من أعدائه بدونكم، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم»^(٢).

٣. النعاس.

قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسَ أَمَنَةً

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٤٨-٥٤٩.

(٢) المصدر السابق ١/ ٥٥١.

في صحيحه عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان، قال: (فتكلم أبو بكر، فأعرض عنه، ثم تكلم عمر، فأعرض عنه، فقام سعد بن عبادة فقال: إيانا تريد يا رسول الله، والذي نفسي بيده، لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا-قال-فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس فانطلقوا حتى نزلوا بدرًا) (٣).

أما كراهية فريق من الصحابة للقتال، فهذا راجع لأمر، وقبل بيانها، لتأمل قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكُرْهُونَ ﴿٥﴾ يَجِدُوا لَوْ أَنَّ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [الأنفال: ٥-٦].

بالتأمل يظهر الآتي:

- أن الكارهين لذلك فريق من الصحابة، لا كلهم.
- أن الله عز وجل وصف هذا الفريق بالمؤمنين، فلا ينبغي تجاوز هذا الوصف الذي يتضمن ثناء عظيمًا.
- أما لماذا كره بعضهم؛ فلأنهم ما خرجوا ابتداء للقتال، وإنما لتعرض لقافلة قريش، وكان حراسها أربعين شخصًا، فاستعدادهم

وتبارك وتمجد أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين يوحي إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا (١).

٦. مشاركة الملائكة في القتال مع الصحابة، ولا شك أن هذا شرف عظيم. وهذا الشرف يدرك من النقطة السابقة.

٧. إلقاء الرعب في قلوب الكفار.

قال تعالى: ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾. أي: «سأرعب قلوب الذين كفروا بي، أيها المؤمنون منكم، وأملؤها فرقا حتى ينهزموا عنكم» (٢).

ولا شك أن في إسناد إلقاء الرعب إلى الله تعالى ما فيه، من تكريم للمؤمنين، ومن بيان عظم الرعب الذي ألقاه الله جل جلاله. أما مواقف الصحابة في هذه الغزوة، فتحدث عنها على قسمين:

الأول: فيما يتعلق بمجموع الصحابة، فيكفي أن الله تعالى وصفهم بالإيمان في معرض امتنانه عليهم-وقد ذكرنا قبل قليل الآيات الدالة على ذلك-ولا شك أن هذه أعظم تزكية من رب العالمين، ولذا استحقوا أن ينصرهم الله عز وجل مع قتلهم، ولتأمل هذا الحوار بين النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم، أخرج مسلم

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة بدر، رقم ١٧٧٩.

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٢١٥.
(٢) جامع البيان ٦/ ١٩٦.

لحياة طويلة. قال: فرمى بما كان معه من التمر. ثم قاتلهم حتى قتل^(٢).

❖ همة شباب الصحابة وإيمانهم وشجاعتهم.

قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: (إني لفي الصف يوم بدر إذ التفت، فإذا عن يميني وعن يساري فتیان حديثا السن فكأنني لم آمن بمكانهما إذ قال لي أحدهما سرًا من صاحبه: يا عم! أرني أبا جهل. فقلت: يا ابن أخي وما تصنع به؟ قال: عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه، فقال لي الآخر سرًا من صاحبه مثله، قال: فما سرني أني بين رجلين مكانهما، فأشرت لهما، اليه فشدا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه. وهما ابنا عفراء.)^(٣)

❖ موقف المقداد الأسود رضي الله عنه. أخرج البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه: (شهدت من المقداد الأسود مشهّدًا لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به، أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: ﴿قَادَهِبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَكَتِلَا﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك؛ فرأيت النبي

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، رقم ١٩٠١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، رقم ٣٩٨٨.

النفسي والمادي كان لمثل هذا العدد، أما النفير، فالأمر يختلف، فهم أمام ألف فارس، خرجوا للقتال لا لحراسة قافلة.

يقول السعدي: «كثير من المؤمنين لم يجر منهم من هذه المجادلة شيء، ولا كرهوا لقاء عدوهم.

وكذلك الذين عاتبهم الله، انقادوا للجهاد أشد الانقياد، وثبتهم الله، وقبض لهم من الأسباب ما تطمئن به قلوبهم»^(١).

الثاني: وأما على المستوى الفردي، فالأمثلة على إخلاصهم وشجاعتهم وحبهم للرسول صلى الله عليه وسلم كثيرة جدًا، نذكر منها:

❖ ما يدل على عظيم تصديقهم وإيمانهم. أخرج مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال: (فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض). قال: يقول عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: (نعم). قال: يخ يخ. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما يحملك على قولك يخ يخ؟). قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: (فإنك من أهلها). فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٣٤٧.

صلى الله عليه وسلم أشرق وجهه وسره،
يعني قوله (١).

رابعاً: غزوة أحد:

تميز حديث القرآن الكريم عن غزوة أحد
بالآتي (٢):

١. تذكير الصحابة رضي الله عنهم
بالسنن.

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ
فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

هذه تسلية من الله تعالى للمؤمنين،
والمعنى: «قد جرى نحو هذا على الأمم
الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء، ثم
كانت العاقبة لهم، والدائرة على الكافرين.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَافْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (٣).

وفيه بشرى أن العاقبة ستكون لهم، وما
عليهم ليتأكدوا سوى السير في الأرض.

٢. دعوة الصحابة رضي الله عنه للعلو
الإيماني.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا
وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب
المغازي، باب قول الله تعالى: (إذ تستغيثون
ربكم)، رقم ٣٩٥٢.

(٢) انظر السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل
أحداث، علي الصلابي ٢/ ٨٢٤-٨٤٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٥٩.

عمران: ١٣٩].

في هذه الآية الكريمة رفع لهمة الصحابة،
وإعلاء لشأنهم، وتأمل الخطاب الرباني:
﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾، ومن كان هذا شأنه،
لا يمكن أن يضعف أو يحزن، ثم يهيجهم
لذلك ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

قال ابن عاشور: «التعليق بالشرط
في قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قصد به
تهيج غيرتهم على الإيمان، إذ قد علم
الله أنهم مؤمنون، ولكنهم لما لاح عليهم
الوهن والحزن من الغلبة، كانوا بمنزلة
من ضعف يقينه فقيل لهم: إن علمتم من
أنفسكم الإيمان. وجيء بإن الشرطية التي
من شأنها عدم تحقيق شرطها، إتماماً لهذا
المقصد» (٤).

٣. ثناء عظيم على الصحابة رضي الله
عنهم.

قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ
الْأَعْلَوْنَ﴾: «وفي هذه الآية بيان فضل هذه
الأمّة؛ لأنه خاطبهم بما خاطب به أنبياءه؛
لأنه قال لموسى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾
[طه: ٦٨].

وقال لهذه الأمّة: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾.

وهذه اللفظة مشتقة من اسمه الأعلى،
فهو سبحانه العلي، وقال للمؤمنين: ﴿وَأَنْتُمْ

(٤) التحرير والتنوير ٤/ ٩٩.

قال أبو حيان: «لما كان من المؤمنين ما كان يوم أحد، وعتب عليهم الله ما صدر منهم في الآيات التي تقدمت، أخبرهم بأن الأمم السالفة قتلت أنبياء لهم كثيرون، أو قتل ربيون كثير معهم، فلم يلحقهم ما لحقكم من الوهن والضعف، ولا ثنائهم عن القتال فجمعهم بقتل أنبيائهم، أو قتل ربيهم، بل مضوا قدماً في نصرته دينهم، صابرين على ما حل بهم. وقتل نبي أو أتباعه من أعظم المصائب، وكذلك كان ينبغي لكم التآسي بمن مضى من صالحى الأمم السابقة، هذا وأنتم خير الأمم، ونيكم خير الأنبياء. وفي هذه الجملة من العتب لمن فر عن النبي صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى»^(٢).

٦. أثر المعاصي في الهزيمة.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

«حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ» حتى إذا جبستم وضعفتم ﴿وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ يقول: واختلفتم في أمر الله، يقول: وعصيتهم

(٢) البحر المحيط ٣/٧٧.

الْأَعْلُونَ»^(١).

٤. الرفق في معالجة الأخطاء.

يلاحظ في هذه الغزوة أن الله تعالى قد ترفق في عتابهم.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وتأمل ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾، ثم لم يقل عز وجل: والله ذو فضل عليكم، وإنما على المؤمنين، ليعلم أن وصف الإيمان ثابت لهم، بل حازوا كماله رضي الله عنهم. والله أعلم.

٥. ضرب المثل بالمجاهدين السابقين.

قال تعالى: ﴿وَكَايِنَ مَنِ نَجَى قَتَلَ مَعَهُ رَيْثُونًا كَثِيرًا فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [١٦١] وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَكَيْتَ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ [١٦٧] فَالْتَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ [١٦٨] [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤/٢١٧.

وَتِلْكَ الْآيَاتُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ
الَّذِينَ آمَنُوا وَتَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ويعزز هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوي إلى فناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن منقلبهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا؛ لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب، فقال عز وجل: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات على رسوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٦٩] (٢).

مواقف بطولية للصحابة رضي الله عنهم في هذه الغزوة:

✽ مصعب بن عمير.

قال خباب بن الأرت رضي الله عنه: (هاجرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نبتغي وجه الله، فوجب أجرنا على الله، ومنا من مضى أو ذهب لم يأكل من أجره شيئاً، كان منهم مصعب بن عمير، قتل يوم أحد، لم يترك إلا نمره، كنا إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطي

وخالفتم نبيكم، ففركتم أمره وما عهد إليكم. وإنما يعني بذلك الرماة الذين كان أمرهم صلى الله عليه وسلم بلزوم مركزهم ومقعدهم من فم الشعب بأحد» (١).

هذه المعصية من بعض الصحابة، وكانت اجتهاداً منهم رضي الله عنهم -وظناً أن المعركة قد حسم أمرها-، كان لها أثر عظيم في الهزيمة، مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم، ولكنه درس عملي لهم، ولكل من يأتي بعدهم ينبههم إلى خطر المعاصي.

٧. خطورة إثارة الدنيا على الآخرة.

يقول تعالى: ﴿مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ
الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [آل
عمران: ١٥٢].

عابهم ربهم، وهو يرقى بهم نحو الكمال. ولقد حدد موطن الخطأ، وخصص ولم يعمم، ﴿مِنْكُمْ﴾، وهذا التخصيص لم يكن بذكر أسماء من يريد الدنيا، ثم تأمل بعدها ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾؛ ليعلم أن القصد من ذكرها أن تتلافى مستقبلاً.

٨. الشهادة اصطفاة.

غير الإسلام كثيراً من المفاهيم التي كانت سائدة آنذاك، فلئن كان القتل يعد خسارة عند قوم، فهو عند الله تعالى اصطفاة، ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلَهُ﴾

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٣٨٨، ١٢٣/٤-١٢٤.

(١) جامع البيان ٣/ ٤٧١.

أَلْقَلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَنْظُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ ﴿١٠﴾
هَذَاكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزَلْزَلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا
﴿١١﴾ [الأحزاب: ١٠-١١].

ولم يحصل اقتتال يذكر، لكن هذه الغزوة كانت ممحصه للصف المؤمن، فنجم النفاق، وأظهر المنافقون ما كانوا يخفون، وقد قص الله من أنبائهم.

يقول تعالى: ﴿وَأَذِيقُوا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوبًا﴾
﴿١٢﴾ ﴿وَأَذِيقُوا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوبًا﴾
﴿١٣﴾ ﴿وَأَذِيقُوا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوبًا﴾
﴿١٤﴾ ﴿وَأَذِيقُوا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوبًا﴾
﴿١٥﴾ [الأحزاب: ١٢-١٥].

وهذا من ثمار هذه الغزوة، ويستحسن أن لا تترك هذه السانحة لنبيين باختصار قضية النفاق:

النفاق يعني: تمكن الحق وغلبة أهله، وأن المنافقين من الذلة لدرجة العجز عن إعلان ما يعتقدون.

إن الله تعالى وعد المؤمنين أن يكشف لهم حقيقة المنافقين، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي

بها رجلاه خرج رأسه، فقال لنا النبي صلى الله عليه وسلم: (غطوا بها رأسه، واجعلوا على رجلاه الإذخر) - أو قال: ألقوا على رجليه من الإذخر، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها) (١).

❁ أم سليط رضي الله عنها.

وللصحابيات دورهن، ففي صحيح البخاري: (أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قسم مروطاً بين نساء من نساء أهل المدينة، فبقي منها مرط جيد، فقال له بعض من عنده: يا أمير المؤمنين أعط هذا بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم التي عندك، يريدون أم كلثوم بنت علي، فقال عمر: أم سليط أحق به. وأم سليط من نساء الأنصار ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال عمر: فإنها كانت تزفر لنا القرب يوم أحد) (٢).

خامساً: غزوة الأحزاب:

حدثت غزوة الأحزاب في السنة الخامسة للهجرة، وقد نزلت سورة تحمل اسمها، ويكفي في وصف ما حدث فيها للصحابة الكرام، قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة أحد، رقم ٤٠٤٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب ذكر أم سليط، رقم ٤٠٧١.

قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْحَابَهُمْ ﴿١١﴾
[محمد: ٢٩].

وقد كشفت غزوة الأحزاب أمرهم، فتباينت المواقف، موقف المؤمنين: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وموقف المنافقين: ﴿وَلَا يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

ولتأمل هذه الآيات: ﴿وَلَا قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا هَلْ يَنْزِي لَنَا مَقَامَ لَكَ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [١٣] ﴿وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنَ آفَاطِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّسُوا بِهَا إِلَّا بَيْسِيرًا﴾ [١٤] ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عِنْدَهُ بِأَنَّ اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُوكَ إِلَّا ذُنُوبًا وَلَئِنْ فَرَغْتَ مِنْهُنَّ مَسْئُولًا﴾ [١٥] ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَغْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تَسْمَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [١٦] ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لِمَنْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [١٧] ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْرُوفِينَ مِنْكُمْ الْقَالِيلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [١٨] ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذُهِبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ

أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [١٩] ﴿يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابَ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَأْذِنُ عَنْ أَنْبِيَائِهِمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٣-٢٠].

إن هذا الإطناب في الحديث عنهم له مغزى عظيم، وهكذا صارت المحن تفضح المنافقين شيئاً فشيئاً، حتى قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَاكِرَةٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦] (١).

إذن فأمر الصحابة معروف، وأمر المنافقين مكشوف، ولا يقع اللبس إلا لمن في قلبه مرض يمنعه من التمييز. يتلخص حديث القرآن الكريم عن هذه الغزوة في الآتي:

١. تذكير المؤمنين بنعم الله عليهم. قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

٢. بيان ما أصاب المسلمين بسبب إحاطة الأحزاب بالمدينة.

قال تعالى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظَّتُونَ بِاللَّهِ الظَّنُونًا﴾ [١٠]

(١) انظر الصحابة في القرآن ص ٣١-٣٤.

حيث ألقى سبحانه الرعب في قلوبهم
فنزلوا على حكم الله ورسوله.

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُ مِنْ
أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صِبَا صِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ
الرُّعْبَ فَرِهًا مَثَلُوتًا وَأَسْرُوتًا قَرِيبًا ﴿٢٦﴾
وَأَوْرَقَكُمْ أَرْضَهُمْ وَيُدْرَهُمْ وَأْمُونَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ
تَطَّوْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾
[الأحزاب: ٢٦-٢٧] (١).

من مواقف الصحابة رضي الله عنهم:

تعددت مواقف الصحابة، ففيما يتعلق
بمجموعهم، فالكل يشارك في حفر
الخندق، والكل أصابه من الجوع ما أصابه،
والكل مستعد لتنفيذ ما يوجه إليه من أوامر،
وهم كما وصفهم الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ
مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ
الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَوَقَفُونَ
بِاللَّهِ الطُّغْنَانًا ﴿١٠﴾﴾ [الأحزاب: ١٠].

ولنتعرض بعض النصوص التي توضح
هذا:

أخرج الإمام البخاري عن أنس رضي
الله عنه قال: (خرج رسول الله صلى الله
عليه وسلم إلى الخندق، فإذا المهاجرون
والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن
لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم
من النصب والجوع قال: (اللهم إن العيش

(١) انظر السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل
أحداث علي الصلابي ٢/ ٩٦٢-٩٦٣.

[الأحزاب: ١٠].

٣. الكشف عن المنافقين.

وقد مر قبل قليل ذكر كثير من الآيات
الدالة على ذلك.

٤. بيان صلابة موقف المؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ
قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾
[الأحزاب: ٢٢].

٥. حض المؤمنين على التأسى برسول الله
صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ
أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

٦. مدح بعض المؤمنين على مواقفهم.

قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا
مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ
وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣].

٧. بيان سنة من سنن الله التي لا تتخلف،
وهي جعل العاقبة للمؤمنين والهزيمة
لأعدائهم.

قال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ
لَئِيمًا لَّوًّا خَيْرًا وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ
اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: ٢٥].

٨. امتنانه سبحانه على عباده المؤمنين

حيث نصرهم على بني قريظة، وهم في
حصونهم المنيعه بدون قتال يذكر.

عيش الآخرة. فاغفر للأصبار والمهاجرة). فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمدًا

على الجهاد ما بقينا أبدًا^(١).

وفي رواية عنه رضي الله عنه: (قال: يؤتون بملء كفي من الشعير، فيصنع لهم بإهالة سنخة، توضع بين يدي القوم، والقوم جياغ، وهي بشعة في الحلق ولها ريح متنت)^(٢).

أخرج البخاري بسنده عن جابر رضي الله عنه قال: (لما حضر الخندق رأيت بالنبي صلى الله عليه وسلم خمصًا شديدًا، فانكفأت إلى امرأتي فقلت: هل عندك شيء؟ فإني رأيت برسول الله صلى الله عليه وسلم خمصًا شديدًا، فأخرجت إلي جرابًا فيه صاع من شعير، ولنا بهيمة داجن، فذبحتها وطحنت الشعير، ففرغت إلى فراغي وقطعتها في برمتها، ثم وليت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: لا تفضحني برسول الله صلى الله عليه وسلم وبمن معه، فحجته فساررته فقلت: يا رسول الله ذبحنا بهيمة لنا وطحنا صاعًا من شعير

كان عندنا، فتعال أنت ونفر معك. فصاح النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (يا أهل الخندق إن جابرًا قد صنع سؤرًا فحي هلاً بكم) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تنزلن برمتكم ولا تخيزن عجينكم حتى أجيء)، فحجث وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقدم الناس، حتى جثت امرأتي، فقالت: بك وبك، فقلت: قد فعلت الذي قلت. فأخرجت له عجينا، فبصق فيه، وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبصق وبارك، ثم قال: ادع خابزة فلتخبز معي، واقدحي من برمتكم ولا تنزلوها وهم ألف، فأقسم بالله لقد أكلوا حت تركوه، وانحرفوا وإن برمتنا لتغظ كما هي، وإن عجننا ليخبز كما هو)^(٣).

أما الآن، فلستعرض المواقف الفردية للمصحابة، ونكتفي بواحد منها^(٤).

موقف للزبير بن العوام:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب: (من يأتينا بخبر القوم؟). فقال الزبير: أنا. ثم قال: (من يأتينا بخبر القوم؟).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، وهي الأحزاب، رقم ٤١٠٢.

(٤) مواقف الصحابة في هذه الغزوة وفي غيرها كثيرة، منها: موقف علي رضي الله عنه وقتله لعمر بن عبد ود، وموقف حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وإنما اقتصرنا على ما ذكر، للحفاظ على قرآنية الموضوع، ولأنه في صحيح البخاري.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، وهي الأحزاب، رقم ٤٠٩٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، وهي الأحزاب، رقم ٤١٠٠.

ألفاً وأربع مئة، وفي قول بعضهم: ألفاً وخمس مئة، وفي قول بعضهم: ألفاً وثلاث مئة^(٢).

كيف تلقى الصحابة رضي الله عنهم هذه الآية، وهم يعلمون أنهم المقصودون، لقد رضي الله تعالى عنهم، وقد أكد هذا الرضا بثلاثة مؤكدات، ثم عبر عنه بالماضي، دلالة على تحقق الأمر، ثم وصفهم بالمؤمنين، ثم بين علمه تعالى بما في قلوبهم من الصدق. واستحقوا مع هذه البشرية من الله تعالى، بشارة من الرسول صلى الله عليه وسلم حيث يقول: (لا يدخل النار-إن شاء الله- من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها)^(٣).

وقد أخرج البخاري بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية: (أنتم خير أهل الأرض)، وكنا ألفاً وأربع مائة، ولو كنت أبصر اليوم، لأريتكم مكان الشجرة^(٤). وهل هناك شرف أعظم من أن يجعل الله

فقال الزبير: أنا. ثم قال: (من يأتينا بخير القوم؟). فقال الزبير: أنا. ثم قال: (إن لكل نبي حواريًا، وأن حواري الزبير)^(١).

سادسًا: بيعة الرضوان:

يقول تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾ [الفتح: ١٨-١٩].

يقول الطبري: «لقد رضي الله يا محمد عن المؤمنين ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ يعني: بيعة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورسول الله بالحديبية، حين بايعوه على مناجزة قريش الحرب، وعلى أن لا يفروا...، وكانت بيعتهم إياه هنالك فيما ذكر تحت شجرة. وكان سبب هذه البيعة ما قيل: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان أرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه برسالته إلى الملا من قريش، فأبطأ عثمان عليه بعض الإبطاء، فظن أنه قد قتل، فدعا أصحابه إلى تجديد البيعة على حربهم على ما وصفت، فبايعوه على ذلك، وهذه البيعة التي تسمى بيعة الرضوان، وكان الذين بايعوه هذه البيعة فيما ذكر في قول بعضهم:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، وهي الأحزاب، رقم ٤١١٣.

(٢) جامع البيان ١١/٣٤٧. بحذف يسير.

قال ابن حجر في فتح الباري ٨/٢٠: والجمع بين هذا الاختلاف أنهم كانوا أكثر من ألف وأربعمائة.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أصحاب الشجرة، رقم ٢٤٩٦.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم ٤١٥٤.

كثيرة ﴿التوبة: ٢٥﴾.

تذكيراً بما سلف من نصر الله تعالى لهم، ومنها ما حصل في غزوة بدر، ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾، وهو واد بين مكة والطائف، قاتل عليه نبي الله عليه السلام هوازن وثقيفاً بعد فتح مكة ﴿إِذْ أَعَجَبْتَكُمْ كَفَرْتُمْ﴾ وذلك أنهم قالوا: لن نغلب اليوم من قلة وكانوا اثني عشر ألفاً ﴿فَلَمْ تُغْنِ﴾ لم تدفع عنكم شيئاً ﴿وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ برحبها وسعتها صافقت عليكم، فلم تجدوا فيها موضعاً يصلح لفراركم، وهو قوله: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ انهزمتم، أعلمهم الله تعالى أنهم ليسوا يغلِبون بكثرتهم إنما يغلِبون بنصر الله ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ يعني الأمانة والطمأنينة ﴿عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ حُنُودًا لَهُمْ تَرَوُهَا﴾ الملائكة ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل والأسر وسبي الأولاد ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ﴾ فيهديه إلى الإسلام ولا يؤاخذ به بما سلف ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿بِمَنْ آمَنَ﴾.

يتضح من حديث القرآن الكريم عن هذه الغزوة الآتي:

١. ربط الصحابة بالله تعالى، وأن النصر من عنده عز وجل، من خلال مواقف

(٣) انظر الوسيط، الواحدي ١/ ٤٨٧-٤٨٨.

تعالى مبايعة هؤلاء الكرام رضي الله عنهم للرسول، صلى الله عليه وسلم مبايعة له عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].

أما قوله تعالى: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ فهو تحذير من نكث هذه البيعة وتظطيع له؛ لأن الشرط يتعلق بالمستقبل، ولم ينكث أحد ممن بايع؛ لأن سبب المبايعة قد انعدم بالصلح الواقع بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين أهل مكة وأن هذه الآية نزلت فيما بين ساعة البيعة وبين انعقاد الهدنة وحصل أجر الإيفاء بالنية عدمه لو نزل ما عاهدوا الله علي (١).

قال جابر رضي الله عنه: (بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة على الموت، وعلى ألا نفر، فما نكث أحد منا البيعة، إلا جد بن قيس المنافق، اختبأ تحت إبط بعيره، ولم يسر مع قومه) (٢).

سابعاً: غزوة حنين:

هذه الغزوة كانت بعد فتح مكة، في السنة الثامنة للهجرة، قوامها اثنا عشر ألفاً، ولقد صدرت الآيات التي تتحدث عن هذه الغزوة بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ فَصَّرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ

(١) انظر التحرير والتتوير ٢٦/ ١٦٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب استجباب مبايعة الإمام الجيش، رقم ١٨٥٦.

حضر منهم؛ لأنهم ثبتوا بعد ذلك وقاتلوا وانتصروا»^(٢).

٥. إكرام الله تعالى الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابه بإنزال الملائكة عليهم السلام، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّرَ تَرَوْهَا﴾ «هم الملائكة، وقد اختلف في عددهم على أقوال: قيل: خمسة آلاف، وقيل: ثمانية آلاف، وقيل: ستة عشر ألفاً، وقيل: غير ذلك، وهذا لا يعرف إلا من طريق النبوة. واختلفوا أيضًا: هل قاتلت الملائكة في هذا اليوم أم لا؟»^(٣). والعلم عند الله تعالى.

مواقف للصحابه في هذه الغزوة:

في صحيح مسلم بسنده عن العباس، قال: (شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نفارقه، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي، فلما التقى المسلمون والكفار ولي المسلمون مدبرين، ففطق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض بغلته قبل الكفار، قال عباس: وأنا أخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكفها إرادة أن لا تسرع، وأبو

سبقت، وهم يعرفونها.

٢. التنبيه على موضع الخطأ، وهو هنا الإعجاب بالكثرة.

﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾، ولم يقل الله تعالى: فلم تغن من عدوكم شيئاً، وإنما من الله، وهنا ربط القلوب بما يرضي الله، فالنصر من عنده وحده.

قال ابن كثير: «نبههم على أن النصر من عنده، سواء قل الجمع أو كثر، فإن يوم حنين أعجبهم كثرتهم، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً، فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم»^(١).

٣. المؤاخذه على الخطأ، لا يعفى منها أحد، فهؤلاء الصحابة الكرام، ومعهم سيد ولد آدم، ومع ذلك، فقد أصابهم ما أصابهم، ولنستحضر ما حصل في غزوة أحد، ولنكن من الأخطاء على حذر.

٤. عدم اليأس من رحمة الله تعالى.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، أنزلها الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين.

قال الشوكاني: «هم الذين لم ينهزموا، وقيل: الذين انهزموا، والظاهر جميع من

(٢) فتح القدير ٢/٣٥٠.

(٣) المصدر السابق.

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/١٨١، وفيه تفصيل لهذه الغزوة.

اختصارًا لها، يقول ابن كثير: «ولما أنزل الله عز وجل على رسوله ﴿قَدْ لَبِثُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].»

ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب إلى الجهاد، وأعلمهم بغزو الروم، وذلك في رجب من سنة تسع، وكان لا يريد غزوة إلا ورى بغيرها، إلا غزوته هذه، فإنه صرح لهم بها؛ ليتأهبوا لشدة عدوهم وكثرتهم، وذلك حين طابت الثمار، وكان ذلك في سنة مجدية، فتأهب المسلمون لذلك، وأنفق عثمان بن عفان رضي الله عنه على هذا الجيش-وهو جيش العسرة-مألاً جزيلاً، فليل: ألف دينار، وقال بعضهم: إنه حمل على ألف بعير ومائة فرس وجهزها أتم جهاز، حتى لم يفقدوا عقلاً ولا خطأً رضي الله عنه.

ونهرض صلى الله عليه وسلم في نحو من ثلاثين ألفاً، واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة، وقيل: سباع بن عرفطة، وقيل: علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، والصحيح أن علياً كان خليفة له على النساء والذرية، وقد خرج معه عبد الله بن أبي راس النفاق، ثم رجع في أثناء الطريق.

سفيان أخذ بركاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أي عباس! ناد أصحاب السمرة). فقال عباس-وكان رجلاً صيتاً-فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السمرة؟ قال: فوالله لكان عطفهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها. فقالوا: يا لبيك يا لبيك، قال: فاقتتلوا والكفار، والدعوة في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار! يا معشر الأنصار! قال: ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج فقالوا: يا بني الحارث بن الخزرج! يا بني الحارث بن الخزرج! فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بغلته كالمطاول عليها إلى قتالهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هذا حين حمى الوطيس). قال: ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حصياتٍ فرمى بهن وجوه الكفار. ثم قال: (انهزموا ورب محمد). قال: فذهبت أنظر، فإذا القتال على هيئته فيما أرى، قال: فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياتهم، فما زلت أرى حدهم كليلاً وأمرهم مدبراً^(١).

ثامناً: غزوة تبوك:

نزل معظم سورة التوبة في شأن هذه الغزوة، ولذا فإنه من المناسب أن نذكر (١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، رقم ١٧٧٥.

صاحب أيلة، وبعث خالدًا إلى أكيدر دومة، فجيء به فصالحه أيضًا وردّه. ثم رجع صلى الله عليه وسلم، وكان رجوعه من هذه الغزاة في رمضان من سنة تسع، وأنزل فيها عامة سورة التوبة، وعاتب الله عز وجل من تخلف عنه صلى الله عليه وسلم، فقال عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [التوبة: ١٢٠] (١).

تستطيع أن نستخلص بعض الدروس مما سبق:

لا تزال الفتنة تميز الخبيث من الطيب، فهذه الغزوة، التي سميت بالعسرة، بكل ما تحمله من معان، وقد وقعت في وقت طابت فيه الثمار، والحر شديد، والشقة بعيدة، فلن يثبت أمام هذا كله إلا المؤمنون، وهذا ما حدث، فلقد انقسم الناس إلى ثلاثة أصناف: ﴿المؤمنون، وهم الغالبية، وقدرُوا بثلاثين ألفاً.﴾

﴿العصاة، وهم نفر قليل، سنذكر في المواقف حديث أحدهم.﴾

﴿المنافقون، وقد تولت سورة التوبة فضحهم، وبيان صفاتهم.﴾

فيما يتعلق بالمؤمنين يكفي أن يشار إلى قوله تعالى: ﴿لَنَكِينِ الرَّسُولِ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾

(١) الفصول في سيرة الرسول، ابن كثير ص ٢١٠ - ٢١٣ بحذف يسير.

وتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء والذرية ومن عذره الله من الرجال، ممن لا يجد ظهرًا يركبه، أو نفقة تكفيه، فمنهم البكاؤون وكانوا سبعة وتخلف منافقون كفراً وعنادًا، وكانوا نحو الثمانين رجلًا، وتخلف عصاة، مثل مرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية، ثم تاب الله عليهم بعد قدومه صلى الله عليه وسلم بخمسين ليلة.

فسار صلى الله عليه وسلم فمر في طريقه بالحجر، فأمرهم أن لا يدخلوا عليهم بيوتهم إلا أن يكونوا بكائين، وأن لا يشربوا إلا من بئر الناقة، وما كانوا عجنوا به من غيره فليطعموه للإبل، وجازها صلى الله عليه وسلم مقتنعًا، فبلغ صلى الله عليه وسلم تبوك وفيها عين تبض بشيء من ماء قليل، فكثرت ببركته مع ما شوهد من بركة دعائه في هذه الغزوة، من تكثير الطعام الذي كان حاصل الجيش جميعه منه مقدار العنز الباركة، فدعا الله عز وجل، فأكلوا منه وملؤوا كل وعاء كان في ذلك الجيش، وكذا لما عطشوا دعا الله تعالى فجاءت سحابة فأمطرت فشربوا حتى رووا واحتملوا.

ولما انتهى إلى هناك، لم يلق غزوًا، ورأى أن دخولهم إلى أرض الشام بهذه السنة يشق عليهم، فعزم على الرجوع وصالح صلى الله عليه وسلم يحنة بن رؤبة

مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَوْلِيَّتِكُمْ لَهُمْ الْخَيْرَاتُ وَأَوْلِيَّتِكُمْ هُمْ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ [التوبة: ٨٨-٨٩].

ويتأكد هنا ما سبق بيانه أن وصف الإيمان قد لازم الصحابة رضي الله عنهم، فما غيروا وما بدلوا تبديلاً رضي الله عنهم. وتأمل كيف يقرنهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم، وينص على أنهم معه، ثم وعدهم الله تعالى بالخيرات، وهي تناول منافع الدارين؛ لإطلاق اللفظ، ووصفهم بالفلاح، بل هم الكاملون فيه، ثم وعدهم الجنة، مبيّناً أن ذلك الأمر العالي المكانة، هو الفوز العظيم، الذي لا فوز مثله^(١).

شهد الله تعالى للصحابة رضي الله عنهم باتباع رسوله صلى الله عليه وسلم في ساعة العسرة، والتقييد بالعسرة يدل على أنهم كانوا صادقين في إيمانهم وحبهم لله ورسوله صلى الله عليه وسلم. يقول تعالى:

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، وافتتاح الآية بمؤكدات

ثلاثة، والإتيان بالفعل الماضي، دلالة على

تحقق هذه التوبة، وذكر النبي صلى الله عليه وسلم، وتقديمه ههنا، لبيان عظم منزلتها^(٢). أما المنافقون، فقد فضحتهم سورة التوبة، حتى سميت بالفاضحة، ومن الآيات التي أشارت إلى بعض أفعالهم الذميمة:

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ وَسَيَّحِلَفُونَ بِاللَّهِ لَوْ آسَظَعْنَا لِحُرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢].

قال الطبري: «وكانت جماعة من أصحابه قد استأذنوه في التخلف عنه حين خرج إلى تبوك، فأذن لهم: لو كان ما تدعو إليه المتخلفين عنك، والمستأذنيك في ترك الخروج معك إلى مغزك الذي استنفرتهم إليه، ﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾ يقول: غنيمة حاضرة ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾، يقول: وموضعاً قريباً سهلاً ﴿لَاتَّبَعُوكَ﴾، ونفروا معك إليهما، ولكنك استنفرتهم إلى موضع بعيد، وكلفتهم سفرًا شاقاً عليهم، لأنك استنصتهم في وقت الحر، وزمان القيظ وحين الحاجة إلى الكن.

﴿وَسَيَّحِلَفُونَ بِاللَّهِ لَوْ آسَظَعْنَا لِحُرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ يقول تعالى ذكره: وسيحلف لك، يا محمد، هؤلاء المستأذنون في ترك الخروج معك، اعتذاراً منهم

(١) انظر فضائل الصحابة في القرآن الكريم ص ١٥٠-١٥١.

(٢) انظر التحرير والتنوير ١١/٤٨.

تخلف كعب بن مالك رضي الله عنه عن غزوة تبوك من غير عذر، ولقد حاول اللحاق بالرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه، لكنه لم يفعل، قال كعب: (وهمت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلت فلم يقدر لي ذلك)، ثم عند عودة الرسول صلى الله عليه وسلم أجمع على أن يقول الصدق، وطلق المخلفون يعتذرون ويحلفون، فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكّل سرائرهم إلى الله، أما كعب فيصف حاله: (فجئته فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال: (تعالى) فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: (ما خلفك، ألم تكن قد ابتعت ظهرك) فقلت: بلى إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذرٍ ولقد أعطيت جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه، إني لأرجو فيه عفو الله لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك)، وقد (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين

إليك بالباطل، لتقبل منهم عذرهم، وتأذن لهم في التخلف عنك، بالله كاذبين ﴿لَوْ أَسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾، يقول: لو أطقنا الخروج معكم بوجود السعة والمراكب والظهور وما لا بد للمسافر والغازي منه، وصحة البدن والقوى، لخرجنا معكم إلى عدوكم ﴿يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ يقول: يوجبون لأنفسهم، بحلفهم بالله كاذبين، الهلاك والعطب؛ لأنهم يورثونها سخط الله، ويكسبونها أليم عقابه ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، في حلفهم بالله^(١).

ومنها قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكُولُ أُنْذَن لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩].

وقوله جل جلاله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَاهُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨]. إلى غير ذلك من الآيات.

وأما العصاة، فسنذكر حديث كعب بن مالك رضي الله عنه^(٢)، ولطوله سنختصره في الآتي:

(١) جامع البيان ٦/٣٧٩-٣٨٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، رقم ٤٤١٨، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب ابن مالك وصاحبه، رقم ٢٧٦٩.

٣. رسوخ إيمانهم مع ما تعرضوا له من الفتن، يقول ابن حجر معلقاً على خطاب ملك غسان، وما فعله كعب رضي الله عنه: «ودل صنيع كعب هذا على قوة إيمانه ومحبته لله ولرسوله، وإلا فمن صار في مثل حاله من الهجر والإعراض، قد يضعف عن احتمال ذلك، وتحمله الرغبة في الجاه والمال على هجران من هجره، ولا سيما مع أمنه من الملك الذي استدعاه إليه أنه لا يكرهه على فراق دينه، لكن لما احتمل عنده أنه لا يأمن من الافتتان حسم المادة وأحرق الكتاب ومنع الجواب، هذا مع كونه من الشعراء الذين طبعت نفوسهم على الرغبة، ولا سيما بعد الاستدعاء والحث على الوصول إلى المقصود من الجاه والمال، ولا سيما والذي استدعاه قريبه ونسيبه، ومع ذلك فغلب عليه دينه وقوي عنده يقينه، ورجح ما هو فيه من النكد والتعذيب على ما دعي إليه من الراحة والنعيم، حباً في الله ورسوله»^(١).

٤. سرعة امثالهم لأوامر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، تأمل قوله لما طلب منه أن يعتزل امرأته: «فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل».

من تخلف عنه، فاجتنب الناس، وتغيروا لنا، حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة). وأن ملك غسان دعاه بقوله: (أما بعد، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوانٍ ولا مضية، فالحق بنا نواسك). يقول كعب: (فقلت لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء، فتيمنت بها التنور فسجرتة بها) ثم لما مضت أربعون، طلب منهم أن يعتزلوا نساءهم، يقول كعب: «فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا بل اعتزلها ولا تقربها. وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر». ثم نزلت توبتهم بعد مضي خمسين ليلة.

في هذه الحادثة دروس كثيرة، منها:

١. الصحابة رضي الله عنهم ليسوا معصومين من الخطأ، ولكنهم يبادرون إلى التوبة.

٢. عظم صدق الصحابة رغم ما نالهم من الأذى، ويكفي الوصف القرآني لحالهم: ﴿رَعَى الثَّلَاثَةَ الَّذِينَ خَلَفُوا وَحَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١١٨)

[التوبة: ١١٨].

(١) فتح الباري ٨/ ٤٦٢.

منزلة أهل البيت رضي الله عنهم

ونكتفي بحديث كعب بن مالك رضي الله عنه في بيان مواقف الصحابة رضي الله عنهم.

أولاً: زوجات النبي صلى الله عليه وسلم:

نزلت آيات كريمة تبين فضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، ولو لم ينزل إلا قوله تعالى: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ نَفْسِهِمْ وَأَزْوَاجَهُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

لكفاهن فخراً، كيف وقد قرنهن الله تعالى بالنبي صلى الله عليه وسلم، وأضافهن إليه، قال القرطبي: «شرف الله تعالى أزواج نبيه صلى الله عليه وسلم بأن جعلهن أمهات المؤمنين، أي: في وجوب التعظيم والمبرة والإجلال وحرمة النكاح على الرجال، وحجبهن رضي الله تعالى عنهن بخلاف الأمهات»^(١).

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ لَّا يُزِيلُكَ إِن كُنْتَن تَرِيدَن الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْتَن أُمِّيَعَكَن وَأَسْرَخَكَن سَرَكَآ جَمِيلَا ﴿٢٨﴾ وَلَإِن كُنْتَن تَرِيدَن اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكَن أَجْرًا عَظِيمَا ﴿٢٩﴾ يَبْسَاءُ النَّبِيِّ مَن يَأْت مِنكَن بِفَحِشَةٍ مَّبِينَةٍ يَضَعَف لَهَا الْعَدَابُ ضَعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرَا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَفْعَلْ مِثْلَ مَا نَعْمَلْ صَدَلَا نَزَّيْهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمَا ﴿٣١﴾ يَبْسَاءُ النَّبِيِّ لَسْتَن كَأَحَدٍ

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٤/١٢٣.

وزيتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهن عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل، فاخترن رضي الله عنهن وأرضاهن الله ورسوله والدار الآخرة، فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة.

قال تعالى: ﴿يُنْسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفْنَ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴿٣١﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ [الأحزاب: ٣٠-٣١].

يقول الله تعالى واعظاً نساء النبي صلى الله عليه وسلم اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، واستقر أمرهن تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فناسب أن يخبرهن بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء بأن من يأت منهن بفاحشة مبينة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: وهي النشوز وسوء الخلق، وعلى كل تقدير فهو شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْطَبَنَّ عَلَيْكَ﴾ [الزمر: ٦٥]. فلما كانت محلتهن رفيعة، ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظاً؛ صيانة لجنابهن وحجابهن الرفيع، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ﴾

مَنْ النِّسَاءِ إِنْ أَتَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٠﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣١﴾ وَأَذْكُرَنَّ مَا يَمْتَلِكُنَّ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٨-٣٤].

تحدث هذه الآيات في بدايتها عن التخبير، وقد ورد في صحيح البخاري ما يوضحه، (قالت عائشة: فأنزلت آية التخبير، فبدأ بي أول امرأة فقال: (إني ذاكركم لك أمراً، ولا عليك أن لا تعجلي، حتى تستأمري أبويك). قالت: قد أعلم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقك. ثم قال: (إن الله قال: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ لَأَرْوِيَنَّكَ﴾ إلى قوله: ﴿عَظِيمًا﴾) قلت: أفني هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. ثم خير نساءه. فقلن مثل ما قالت عائشة^(١).

قال ابن كثير: «هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن يخير نساءه بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره، ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب الغرفة والعلية المشرفة وغير المشرفة في السطوح وغيرها، رقم ٢٤٦٨.

النساء، ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة. ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ قال السدي وغيره: يعني بذلك ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال، ولهذا قال تعالى: ﴿فَيَطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ دغل ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ قال ابن زيد: قولاً حسناً جميلاً معروفاً في الخير، ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ الزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة، ومن الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد بشرطه، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، ولكن ليخرجن وهن ثفلات)^(١). وفي رواية (وبيوتهن خير لهن)^(٢).

﴿وَلَا تَبْرَحْنَ تَبْرِجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال، فذلك تبرج الجاهلية. وقال قتادة: إذا خرجتن من بيوتكن، وكانت لهن مشية وتكسر وتغنج، فنهى الله تعالى عن

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب ما جاء في خروج النساء ١/٢١٠، رقم ٥٦٥. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١٢٤٢/٢، رقم ٧٤٥٧.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٣٧/٩، رقم ٥٤٦٨، وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب ما جاء في خروج النساء، ١/١٥٥، رقم ٥٦٧.

وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١٢٤٢/٢، رقم ٧٤٥٨.

يُضَعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾.

قال مالك عن زيد بن أسلم: ﴿يُضَعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ قال: في الدنيا والآخرة، ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِسِيرًا﴾ سهلاً هيناً، ثم ذكر عدله وفضله في قوله: ﴿وَمَنْ يَفْتَنَنَّ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ويستجب ﴿تَوَظَّأَ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ في الجنة، فإنهن في منازل رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى العليين، فوق منازل جميع الخلائق في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش.

وقال تعالى: ﴿يُنْسَاةَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبْرِجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿وَأذْكُرْنَ مَا يُبَيِّنُ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ ﴿٣٥﴾ [الأحزاب: ٣٢-٣٤].

هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي صلى الله عليه وسلم، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك، فقال تعالى مخاطباً لنساء النبي صلى الله عليه وسلم بأنهن إذا اتقين الله عز وجل كما أمرهن، فإنه لا يشبههن أحد من

ذلك.

وقال مقاتل بن حيان: ﴿وَلَا تَبْرَحْ﴾
تَبْرَحُ الْجَنَاحُ الْأُولَى والتبرج: أنها تلقي
الخمير على رأسها ولا تشده، فيواري
قلاندها وقرطها وعنقها، ويبدو ذلك كله
منها، وذلك التبرج، ثم عمت نساء المؤمنين
في التبرج.

﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ
وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ نهان أولاً عن الشر،
ثم أمرهن بالخير من إقامة الصلاة، وهي:
عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة
وهي: الإحسان إلى المخلوقين ﴿وَأَطِعْنَ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهذا من باب عطف العام
على الخاص.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ
عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ
تَطْهِيراً﴾ وهذا نص في دخول أزواج
النبي صلى الله عليه وسلم في أهل البيت
ههنا؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب
النزول داخل فيه قولاً واحداً، إما وحده على
قول، أو مع غيره على الصحيح.

وروى ابن جرير عن عكرمة أنه كان
ينادي في السوق: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ
عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ
تَطْهِيراً﴾ نزلت في نساء النبي صلى الله
عليه وسلم خاصة. وقال عكرمة: من شاء
باهلته أنها نزلت في شأن نساء النبي صلى

الله عليه وسلم، فإن كان المراد أنهن كن
سبب النزول دون غيرهن، فصحيح، وإن
أريد أنهن المراد فقط دون غيرهن ففيه نظر؛
فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد
أعم من ذلك.

ثم قال ابن كثير: «ثم الذي لا يشك
فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي صلى
الله عليه وسلم داخلات في قوله تعالى:
﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ
أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾؛ فإن سياق
الكلام معهن، ولهذا قال تعالى بعد هذا
كله: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَلْتَكِنُ فِي بُيُوتِكُنَّ
مِنَ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أي: واعملن
بما ينزل الله تبارك وتعالى على رسوله
صلى الله عليه وسلم في بيوتكن من الكتاب
والسنة، قاله قتادة وغير واحد، واذكرن هذه
النعمة التي خصصتن بها من بين الناس، أن
الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس،
وعائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله
عنهما أولاهن بهذه النعمة، وأحظاهن بهذه
الغنيمة، وأخصهن من هذه الرحمة العميمة؛
فإنه لم ينزل على رسول الله صلى الله
عليه وسلم الوحي في فراش امرأة سواها،
كما نص على ذلك صلوات الله وسلامه
عليه»^(١).

وقال ابن العربي في قوله تعالى: ﴿لَسْتَنَّ

(١) انظر تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٢١.

❖ عائشة رضي الله عنها.

لقد أنزل الله تعالى في شأن عائشة رضي الله عنها قرآناً يتلى، يظهر براءتها مما رماها به أهل الإفك، ولترك عائشة الصديقة تحكي ذلك، تقول في حديث طويل نجتزئ منه الآتي: (وأنا أرجو أن يبرئني الله، ولكن والله ما ظننت أن ينزل في شأنِي وحيًا، ولأنا أحقر في نفسي من أن يتكلم بالقرآن في أمري، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله، فوالله ما رام مجلسه، ولا خرج أحدٌ من أهل البيت، حتى أنزل عليه الوحي، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في يوم شاتٍ، فلما سري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لي: (يا عائشة احمدي الله؛ فقد برأك الله). فقالت لي أمي: قومي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: لا والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله. فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ [النور: ١١] (الآيات) (٥).

كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ﴿١﴾ يعني: في الفضل

والشرف، فإنهن وإن كن من الأدميات، فلسن كإحدهن، كما أن النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان من البشر جبلة، فليس منهم فضيلة ومنزلة، وشرف المنزلة لا يحتمل العشرات، فإن من يقتدى به، وترفع منزلته على المنازل جدير بأن يرتفع فعله على الأفعال، ويربو حاله على الأحوال (١).

❖ خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

أخرج الإمام البخاري عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (خير نسائها مريم، وخير نسائها خديجة). (٢) قال ابن حجر: «خير نسائها، أي: نساء زمانها» (٣).

يكفي في فضلها حديث رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: (أتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناءً فيه إدامٌ أو طعامٌ أو شرابٌ، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها ببيتٍ في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب) (٤).

(١) أحكام القرآن/ ٥٦٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة وفضلها رضي الله عنها، رقم ٣٨١٥.

(٣) فتح الباري ٧/ ٥١٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب

الأنصار، باب تزويج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة وفضلها رضي الله عنها، رقم ٣٨٢٠.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضًا، رقم ٢٦٦١.

يقول الزمخشري: «ومعنى كونه خيرًا لهم: أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم؛ لأنه كان بلاء مبيّنًا ومحنة ظاهرة، وأنه نزلت فيه ثماني عشرة آية، كل واحدة منها مستقلة، بما هو تعظيم لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتسليّة له، وتنزيه لأم المؤمنين رضوان الله عليها، وتطهير لأهل البيت، وتهويل لمن تكلم في ذلك أو سمع به فلم تمجّه أذناه، وعدة أطاف للسامعين والتالين إلى يوم القيامة، وفوائد دينية، وأحكام وآداب لا تخفى على متأمليها»^(١).

وقال ابن كثير: ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لِّكَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، لسان صدق في الدنيا ورفعة منازل في الآخرة، وإظهار شرف لهم، باعتناء الله تعالى بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، حيث أنزل الله براءتها في القرآن العظيم ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢]^(٢).

وللزمخشري كلام نفيس حول هذا، يقول: «ولو فليت القرآن كله، وفتشت عما أوعده من العصاة، لم تر الله تعالى قد غلظ في شيء تغليظه في إفاك عائشة رضوان الله عليها، ولا أنزل من الآيات القوارع، المشحونة بالوعيد الشديد والعتاب البليغ والزجر العنيف، واستعظام ما ركب من

ذلك، واستفطاع ما أقدم عليه، ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مفتنة. كل واحد منها كاف في بابه، ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى بها، حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعًا، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، ويأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا، وأنه يوفيههم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهله، حتى يعلموا عند ذلك ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥].

فأوجز في ذلك وأشبع، وفصل وأجمل، وأكد وكرر، وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه في القضاة، وما ذاك إلا لأمر»^(٣).

❁ زينب بنت جحش رضي الله عنها.
يقول تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفِي النَّاسُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَنَّ تَخَشُّهُ فَلَمَّا فَضِنَ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَ بِهِ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزِلِجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب: ٣٧]

ولن نطيل في شرح هذه الآية، لأن المراد ذكر فضلها رضي الله عنها، والشاهد من الآية الكريمة، قوله تعالى: ﴿زَوَّجْنَاكَ﴾، وأن آية الحجاب نزلت بسببها، ففي صحيح

(١) الكشاف ٣/ ٢٢٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ١٧٠.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٢٧-٢٢٨ بحذف يسير.

قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تَقَلَّهَرَ عَلَيْهٖ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ
وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلٰٓئِكَةَ بَعْدَ ذٰلِكَ
ظَهَرَ ﴿١﴾ عَسَىٰ رَبُّهُٓ أَنْ يُلْقَكَ أَنْ يَبْدَلَهُ زَوْجًا
خَيْرًا مِّنْكَ مُسَلِّمًا مِّنْ مَّوَدَّةِ قَيْنَتِكَ تَبَيَّنَتْ عِيْدَاتُ
سَيِّحَتِ تَبَيَّنَتْ وَأَبْكَارًا ﴿٢﴾ [التحریم: ١-٥].

قبل البدء في تناول هذه الآيات لا بد أن نعلم أن الصحابة رضي الله عنهم غير معصومين، وأنهم بشر، يقع منهم الذنب، ولكنهم يسارعون إلى التوبة، وفي الآيات التي معنا حصل ما يحصل بين الضرائر من الغيرة، والله تعالى يريد للصحابة أرفع المقامات، وبخاصة أن الأمر يتعلق بزوجات النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

ومن أفضل من تناول بيان هذه الآيات مع الإيجاز: الشيخ السعودي رحمه الله تعالى، يقول: «هذا عتاب من الله لنبية محمد صلى الله عليه وسلم، حين حرم على نفسه سرية «مارية» أو شرب العسل^(٤)، مراعاة لخاطر بعض زوجاته، في قصة معروفة، فأنزل الله تعالى هذه الآيات ﴿يَتَّبِعُنَّ النَّبِيَّ لَمَّا حَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ والآيات ﴿وَإِذَا أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَبْأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِ الْعَلِيِّ الْخَيْرِ ﴿٣﴾﴾ إن نوبًا إلى الله فقد صغت

(٤) اختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآيات، وقد رجح د.خالد المزيني، بعد مناقشة مستفيضة، أنها في تحريم الرسول صلى الله عليه وسلم جاريته، لصحة سنده، وتصريحه بالنزول، وموافقته لسياق القرآن، واختيار جمهور السلف من المفسرين له. انظر: المحرر في أسباب نزول القرآن ١٠٣٩/٢.

البخاري عن أنس رضي الله عنه: نزلت آية الحجاب في زينب بنت جحش، وأطعم عليها يومئذ خبزًا ولحمًا، وكانت تفخر على نساء النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت تقول: (إن الله أنكحني في السماء)^(١). وفي رواية: (زوجكن أهاليكن، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات)^(٢).

ومما له صلة بهذا الحديث مما يدل على فضلها، قول أنس رضي الله عنه: (ما أولم رسول الله صلى الله عليه وسلم على امرأة من نسائه أكثر أو أفضل مما أولم على زينب. فقال ثابت البناني: بما أولم قال: أطعمهم خبزًا ولحمًا حتى تركوه)^(٣).

آيات العتاب في حق أزواج النبي صلى الله عليه وسلم:

قال تعالى: ﴿يَتَّبِعُنَّ النَّبِيَّ لَمَّا حَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَتْ مَرَّضَاتُ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذَا أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَبْأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِ الْعَلِيِّ الْخَيْرِ ﴿٣﴾﴾

- (١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء، رقم ٧٤٢١.
- (٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء، رقم ٧٤٢٠.
- (٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب زواج زينب بنت جحش، رقم ١٤٢٨.

أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا ﴿٥﴾.

قال كثير من المفسرين: هي حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، أسر لها النبي صلى الله عليه وسلم حديثًا، وأمر أن لا تخبر به أحدًا، فحدثت به عائشة رضي الله عنهما، وأخبره الله بذلك الخبر الذي أذاعته، فعرفها صلى الله عليه وسلم ببعض ما قالت، وأعرض عن بعضه، كرمًا منه صلى الله عليه وسلم، وحلمًا، ف ﴿قَالَتْ مَنْ أَبْأَكَ هَذَا﴾ الخبر الذي لم يخرج منا؟

﴿قَالَ نَبَأِي الْعَلِيُّ الْخَيْرُ ﴿٥﴾﴾ إِنْ نُوْبًا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ الخطاب للزوجتين الكريمتين من أزواجه صلى الله عليه وسلم: عائشة وحفصة رضي الله عنهما، كانتا سببًا لتحريم النبي صلى الله عليه وسلم على نفسه ما يحبه، فعرض الله عليهما التوبة، وعاتبهما على ذلك، وأخبرهما أن قلوبهما قد صغت، أي: مالت وانحرفت عما ينبغي لهن، من الورع والأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم واحترامه، وأن لا يشققن عليه.

﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ تعاونوا على ما يشق عليه، ويستمر هذا الأمر منكن، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ الجميع أعوان للرسول، مظاهرون، ومن كان هؤلاء أعوانه فهو المنصور، وغيره ممن يناوئه مخذول، وفي

هذا أكبر فضيلة وشرف لسيد المرسلين؛ حيث جعل الباري نفسه الكريمة، وخواص خلقه، أعوانًا لهذا الرسول الكريم.

وهذا فيه من التحذير للزوجتين الكريمتين ما لا يخفى، ثم خوفهما أيضًا، بحالة تشق على النساء غاية المشقة، وهو الطلاق، الذي هو أكبر شيء عليهن، فقال: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يَبْدُلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ﴾ فلا ترفعن عليه، فإنه لو طلقكن، لم يضق عليه الأمر، ولم يكن مضطرًا إليكن، فإنه سيلقى ويبدله الله أزواجًا خيرًا منكن، دينًا وجمالًا، وهذا من باب التعليق الذي لم يوجد، ولا يلزم وجوده، فإنه ما طلقهن، ولو طلقهن، لكان ما ذكره الله من هذه الأزواج الفاضلات، الجامعات بين الإسلام، وهو القيام بالشرائع الظاهرة، والإيمان، وهو: القيام بالشرائع الباطنة، من العقائد وأعمال القلوب. القنوت هو: دوام الطاعة واستمرارها.

﴿تَيَبَّتْ﴾ عما يكرهه الله، فوصفهن بالقيام بما يحبه الله، والتوبة عما يكرهه الله، ﴿تَيَبَّتْ وَأَبْكَرًا﴾ بعضهن تيب، وبعضهن أبكار، ليتنوع صلى الله عليه وسلم، فيما يحب.

فلما سمعن رضي الله عنهن هذا التخويف والتأديب، بادرن إلى رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان هذا الوصف

ولما كان هذا الموضوع من المواضيع المتشعبة التي كثر فيها الكلام، وكان من الحكمة أن يبدأ الباحث بما انتهى إليه الآخرون، فإني سأعتمد في هذه النقطة على ما كتبه الأستاذ منصور بن حمد العيدي في رسالته (آيات آل البيت في القرآن الكريم)، وقد توصل إلى نتائج طيبة، أقتصر منها على ما يتعلق بالبحث:

١. مفهوم آل البيت في القرآن الكريم صادق على كل مؤمني بني هاشم إضافة إلى أمهات المؤمنين رضي الله عنهن

٢. أمهات المؤمنين هن أكثر آل البيت ذكراً في القرآن الكريم، سواء في جانب الفضائل أو جانب الأحكام.

٣. لم يخص أحد من آل البيت بأحكام في القرآن غير أمهات المؤمنين، رضي الله عنهن.

٤. لا يوجد دليل قرآني يدل على وجوب محبة آل البيت على جهة الاستقلال، أما تبعاً للنبي صلى الله عليه وسلم، فموجود.

٥. لا توجد فضيلة خاصة في آية من القرآن لعلي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم سوى في آية المباهلة، وما عدا ذلك مما جاء في الأخبار لا يصح

رقم ٣٧١٢.

منطبقاً عليهن، فصرن أفضل نساء المؤمنين، وفي هذا دليل على أن الله لا يختار لرسوله صلى الله عليه وسلم إلا أكمل الأحوال وأعلى الأمور، فلما اختار الله لرسوله بقاء نسائه المذكورات معه، دل على أنهن خير النساء وأكملهن^(١).

وما أروع الاستنباط الأخير، الذي يغني عن كل تعليق.

ثانياً: قرابة النبي صلى الله عليه وسلم:

قال الإمام البخاري: «باب مناقب قرابة رسول صلى الله عليه وسلم، ومنقبة فاطمة عليها السلام بنت النبي صلى الله عليه وسلم. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (فاطمة سيدة نساء أهل الجنة).

ثم أورد أثراً عن أبي بكر رضي الله عنه قال: (ارقبوا محمداً صلى الله عليه وسلم في أهل بيته)^(٢).

وأردفه بحديث للنبي صلى الله عليه وسلم (فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها أغضبني)^(٣).

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ١٠٣٥ بحذف يسير.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب مناقب قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم ٣٧١١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب مناقب قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم،

أبي وقاص رضي الله عنه قال: (لما نزلت هذه الآية ﴿فَقُلْ تَمَّازُوا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًا وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: (اللهم هؤلاء أهلي)^(٢).

وفي صحيح البخاري عن حذيفة قال: (جاء العاقب والسيد - صاحبنا نجران - إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدان أن يلاعنا، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبياً فلاعنا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قال: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً ولا تبعث معنا إلا أميناً. فقال: (لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين). فاستشرف له أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (قم يا أبا عبيدة بن الجراح)، فلما قام، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هذا أمين هذه الأمة)^(٣).

قال الزمخشري: «وخص الأبناء والنساء؛ لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب، وربما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل، ومن ثمة كانوا يسوقون مع أنفسهم الطعائن في الحروب؛ لتمنعهم من الهرب،

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، رقم ٢٤٠٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران، رقم ٤٣٨٠.

قطعاً.

٦. لا يوجد دليل قرآني على عصمة أحد من آل البيت، أو على استحقاق أحد منهم للخلافة، أو على أنهم مغفور الذنوب.

٧. أن القرآن الكريم يثبت حقاً مالياً لأهل البيت، يتمثل في جزء من خمس غنائم الجهاد والفيء فقط.

٨. القرآن الكريم يحث آل البيت على التحلي بأعلى درجات التقوى وعند ذلك يضاعف أجرهم^(١).

نستخلص مما سبق أن الآية الوحيدة التي تخص آل البيت - إذا استثنينا أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، هي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْمَلِكِ فَقُلْ تَمَّازُوا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿١١﴾﴾ [آل عمران: ٦١].

هذا ما قاله د. العيدي، ولكننا نضيف إليها قوله تعالى: ﴿هَذَا نِ حَصْبَانِ أَخْضَمُوا فِي رَيْبِهِمْ﴾ [الحج: ١٩].

وهي وإن لم تكن واردة بخصوص آل البيت، لكنها تتضمن فضلاً لعلي رضي الله عنه.

فيما يتعلق بآية المباهلة، فعن سعد بن

(١) آيات آل البيت في القرآن الكريم، ص ٤٩٧-٤٩٨.

نزلت هذه الآية: «وقول مجاهد وعطاء: إن المراد بهذه الكافرون والمؤمنون يشمل الأقوال كلها، ويتنظم فيه قصة يوم بدر وغيرها، فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله عز وجل، الكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق وظهور الباطل، وهذا اختيار ابن جرير، وهو حسن»^(٤).

وقال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الَّذِينَ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

قد مر أن هذه الآيات نزلت في زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، وهي تشمل آل النبي صلى الله عليه وسلم كلهم، قال ابن كثير - بعد أن ذكر قول من قال: إنها في زوجات النبي صلى الله عليه وسلم خاصة: «فإن كان المراد أنهم كن سبب النزول دون غيرهن، فصحيح، وإن أريد أنهم المراد فقط دون غيرهن، ففيه نظر، فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك».

ثم أورد عدة أحاديث، ومن جملتها حديث الكساء، وفيه: «قالت عائشة رضي الله عنها: خرج النبي صلى الله عليه وسلم ذات غداة وعليه مرطٌ مرحل من شعر أسود، فجاء الحسن رضي الله عنه فأدخله معه، ثم

(٤) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٩١.

ويسمون الذادة عنها بأرواحهم: حماة الحقائق.

وقدمهم في الذكر على الأنفس؛ لينبه على لطف مكانهم وقرب منزلتهم، وليؤذن بأنهم مقدمون على الأنفس مفدون بها، وفيه دليل لا شيء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام، وفيه برهان واضح على صحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لم يرو أحد من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك»^(١).

قال تعالى: ﴿هَذَا خِصْمَانِ تَخَصَّمُوا فِي رَيْبِهِمُ الْقَائِلِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يَصُبُّ مِنْ قَوْقُورِهِمْ أَمْحِيمٌ﴾ [الحج: ١٩].

في صحيح البخاري: (عن علي رضي الله عنه قال: فينا نزلت هذه الآية: ﴿هَذَا خِصْمَانِ تَخَصَّمُوا فِي رَيْبِهِمُ﴾^(٢). وكان أبو ذر رضي الله عنه يقسم قسماً أن هذه الآية ﴿هَذَا خِصْمَانِ تَخَصَّمُوا فِي رَيْبِهِمُ﴾ نزلت في الذين برزوا في يوم بدر: حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث وعتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة)^(٣).

قال ابن كثير بعد أن ذكر الأقوال فيمن

(١) الكشاف ١/ ٣٩٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، رقم ٣٩٦٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، رقم ٣٩٦٩.

واجب المؤمنين تجاه الصحابة الكرام

بعد أن بينا مكانة الصحابة رضي الله عنهم من حيث قوة إيمانهم وصبرهم على الأذى، وهجرتهم، وما تعنيه من ترك للأهل والوطن، والأموال، ثم جهادهم بالنفس والمال، بذلوا كل ذلك وأكثر؛ لينصروا دين الله عز وجل، فما واجبنا نحن الذين جئنا من بعدهم، ووجدنا أمر الدين ميسراً، ما موقفنا من هؤلاء النفر الذين اصطفاهم الله تعالى لصحبة خيرة خلقه، وأفضل رسله عليه وعليهم الصلاة والسلام، ما موقفنا منهم، نوجز هذا الأمر في نقاط:

الأولى: «اعتقاد إمامتهم في الدين»^(٣)،
وأنهم خير القرون، مصداقاً، لقول الله تعالى:
﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا
لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ

[آل عمران: ١١٠].

قال ابن كثير بعد أن ذكر قول ابن عباس رضي الله عنهما: «هم الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة» والصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة، كل قرن بحسبه، وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول الله صلى

(٣) منزلة الصحابة في القرآن ص ٤٧.

جاء الحسين فأدخله معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه، ثم جاء علي رضي الله عنه فأدخله معه، ثم قال صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(١).

وقال الشنقيطي: «الصواب شمول الآية الكريمة لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم، ولعلي وفاطمة والحسن والحسين، رضي الله عنهم كلهم»^(٢).

ولا شك أن فيها فضيلة عظيمة لأهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم.

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٤٥.

والحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ٢٤٢٤.

(٢) أضواء البيان ٦/ ٣٧٩.

تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٠﴾ [التوبة: ١٠٠]، وتوعد بالنار وسوء المصير من اتبع سبيلاً غير سبيلهم، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥]

الثالثة: الثناء والترضي عليهم والاستغفار لهم، والإمساك عما شجر بينهم: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠]

الرابعة: عدم اعتقاد العصمة لأحد منهم: لا عصمة لأحد بعد الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك لا يقدر في إمامتهم، والشهادة لهم بحقيقة الإيمان^(٤).

وأود أن أنبه هنا إلى أننا ينبغي أن نقف من الصحابة موقف الاعتدال، فبعض الناس يتوقع عصمتهم من الخطأ، فلا يقبل فكرة أن الصحابة قد يذنبون، وهذا خطأ، وفريق آخر يتلمس أخطاءهم، ويبرزها، ويضخمها، والمنهج الحق، أنهم - مع ما لهم من مكانة قد سبق بيانها - بشر، غير معصومين، قد يقعون في الخطأ، ولكنهم لا يصرون عليه، بل يبادرون للتوبة منه.

(٤) منزلة الصحابة في القرآن ص ٤٨-٤٩.

الله عليه وسلم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم^(١)، والآيات في خيريتهم كثيرة، ومنها: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ ولا شك أن الصحابة أول الداخلين في ذلك. أما الأحاديث فمنها: قول النبي صلى الله عليه وسلم: (خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)^(٢).

وفي اعتقاد إمامتهم يعقد الأجري باباً فيقول: «باب الحث على التمسك بكتاب الله عز وجل، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وسنة أصحابه رضي الله عنهم، وترك البدع، وترك النظر والجدال فيما يخالف فيه الكتاب والسنة، وقول الصحابة رضي الله عنهم»^(٣).

الثانية: «اتباعهم بإحسان: فقد أثنى الله عز وجل على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وعلى كل من اتبعهم بإحسان، فجعل اتباعهم بإحسان سبيلاً إلى مرضاته، قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي

(١) تفسير القرآن العظيم ١/٥٣٦.
 (٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا شهد، رقم ٢٦٥١، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم، رقم ٢٥٣٣.
 (٣) الشريعة ص ١٧٠.

وسنورد بعض النصوص حول واجبنا نحوهم:

قال صلى الله عليه وسلم: (لا تسبوا أصحابي، لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا، ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه)^(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (حب الأنصار آية الإيمان، وبغضهم آية النفاق)^(٢).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يبغض الأنصار رجلٌ يؤمن بالله واليوم الآخر)^(٣).

قال أبو زرعة: (إذا رأيت الرجل يتقص أحدًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه زنديق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنة أصحاب رسول الله، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا؛ ليبتلوا الكتاب

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لو كنت متخذًا خليلاً)، رقم ٣٦٧٣، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة، رقم ٢٥٤٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنه من الإيمان وعلاماته، وبغضهم من علامات النفاق، رقم ١٢٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنه من الإيمان وعلاماته، وبغضهم من علامات النفاق، رقم ١٣٠.

والسنة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة»^(٤). وقال المزني: «يقال: بفضل خليفة

رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فهو أفضل الخلق وأخيرهم بعد النبي صلى الله عليه وسلم، ونثني بعده بالفاروق، وهو عمر بن الخطاب

رضي الله عنه، فهما وزير رسول الله صلى الله عليه وسلم وضجيعاه في قبره، وثالث بذي النورين عثمان بن عفان رضي الله

عنه، ثم بذي الفضل والتقى علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، ثم الباقيين من العشرة الذين أوجب لهم رسول الله

صلى الله عليه وسلم الجنة، ونخلص لكل رجل منهم من المحبة بقدر الذي أوجب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من

التفضيل، ثم لسائر أصحابه من بعدهم رضي الله عنهم أجمعين، ويقال بفضلهم، ويذكرون بمحاسن أفعالهم، ونمسك عن

الخوض فيما شجر بينهم، فهم خيار أهل الأرض بعد نبينهم، ارتضاهم الله عز وجل لنبيه، وخلقهم أنصارًا لدينه، فهم أئمة

الدين، وأعلام المسلمين، رضي الله عنهم أجمعين»^(٥).

وقال ابن بطة تحت عنوان فضائل

(٤) الكفاية في علم الرواية، الخطيب البغدادي ١٨٨/١.

(٥) إسماعيل بن يحيى المزني، ورسالته شرح السنة، ص ٨٦-٨٧.

النهي عما وصفناه»^(٢).

وقال الطحاوي تحت عنوان: حب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: «ونحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان وبغضهم كفر ونفاق وطغيان.

وثبت الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً لأبي بكر الصديق رضي الله عنه تفضيلاً له وتقديماً على جميع الأمة، ثم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم لعثمان رضي الله عنه، ثم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهم الخلفاء الراشدون والأئمة المهتدون. وأن العشرة الذين سماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويشرهم بالجنة شهد لهم بالجنة على ما شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقوله الحق وهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وهو أمين هذه الأمة رضي الله عنهم أجمعين.

ومن أحسن القول في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه الطاهرات من كل دنس وذرياته المقدسين

الصحابه: «ويشهد لجميع المهاجرين والأنصار بالجنة والرضوان والتوبة والرحمة من الله، ويستقر علمك، وتوقن بقلبك، أن رجلاً رأى النبي صلى الله عليه وسلم، وشاهده وأمن به واتبعه ولو ساعة من نهار، أفضل ممن لم يره ولم يشاهده، ولو أتى بأعمال الجنة أجمعين، ثم الترحم على جميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم صغيرهم وكبيرهم وأولهم وآخرهم، وذكر محاسنهم ونشر فضائلهم، والافتداء بهديهم والافتقاء لأثارهم، وأن الحق في كل ما قالوه والصواب فيما فعلوه»^(١).

ثم قال تحت عنوان: النهي عن الخوض في أحداث الفتنة الكبرى: «فقد شهدوا المشاهد معه، وسبقوا الناس بالفضل، فقد غفر الله لهم، وأمرك بالاستغفار لهم والتقرب إليه بمحبتهم، وفرض ذلك على لسان نبيه، وهو يعلم ما سيكون منهم، وأنهم سيقنتلون، وأنما فضلوا على سائر الخلق؛ لأن الخطأ والعمد قد وضع عنهم، وكل ما شجر بينهم مغفور لهم، ولا ينظر في كتاب صفين، والجمل، ووقعة الدار، وسائر المنازعات التي جرت بينهم، ولا تكتبه لنفسك ولا لغيرك، ولا تروه عن أحد، ولا تقرأه على غيرك، ولا تسمعه ممن يرويه. فعلى ذلك اتفق سادات علماء هذه الأمة من

(٢) الشرح والإبانة ص ٢٩٤-٢٩٦.

(١) الشرح والإبانة ص ٢٩٠-٢٩٢.

من كل رجس، فقد برئ من النفاق^(١). وقال الخطيب البغدادي: «عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم وإخباره عن طهارتهم واختياره لهم في نص القرآن».

ثم ذكر الآيات والأحاديث الدالة على ذلك، ثم قال: «وجميع ذلك يقتضي طهارة الصحابة، والقطع على تعديلهم ونزاهتهم، فلا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله تعالى لهم المطلع على بواطنهم إلى تعديل أحد من الخلق له، فهو على هذه الصفة إلا أن يثبت على أحد ارتكاب ما لا يحتمل إلا قصد المعصية والخروج من باب التأويل، فيحكم بسقوط العدالة، وقد برأهم الله من ذلك ورفع أقدارهم عنده، على أنه لو لم يرد من الله عز وجل ورسوله فيهم شيء مما ذكرناه، لأوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة والجهاد والنصرة، وبذل المهج والأموال، وقتل الآباء والأولاد، والمناصحة في الدين، وقوة الإيمان واليقين، القطع على عدالتهم، والاعتقاد لنزاهتهم، وأنهم أفضل من جميع المعدلين والمزكين الذين يجيئون من بعدهم أبد الأبدين».

هذا مذهب كافة العلماء ومن يعتد بقوله من الفقهاء.

وذهبت طائفة من أهل البدع إلى أن حال

الصحابة كانت مرضية إلى وقت الحروب التي ظهرت بينهم وسفك بعضهم دماء بعض، فصار أهل تلك الحروب ساقطي العدالة، ولما اختلطوا بأهل النزاهة وجب البحث عن أمور الرواة منهم، وليس في أهل الدين والمتحققين بالعلم من يصرف إليهم جرماً لا يحتمل نوعاً من التأويل وضرباً من الاجتهاد، فهم بمثابة المخالفين من الفقهاء المجتهدين في تأويل الأحكام لإشكال الأمر والتباسه، ويجب أن يكونوا على الأصل الذي قدمناه من حال العدالة والرضا إذ لم يثبت ما يزيل ذلك عنهم^(٢).

فهذه بعض النصوص الواردة في واجب المسلمين نحو صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم.

موضوعات ذات صلة:

الاتباع، الأخوة، الصحبة، القدوة

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٩-٣٠.

(٢) الكفاية في علم الرواية ١/ ١٨٠-١٨٧.